

رواية

الخبث

محمود الجعيدي

عنوان الكتاب : الحَيِّثُ

المؤلف : مَحْمُود الجَعِيدِي

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : عبد الرحمن حافظ

رقم الإيداع : ٢٠١٧ / ٢٧٩٥

ردمك : 978-977-6549-25-8

الطبعة الأولى: يناير 2017



المدير العام : هاله البشيشي

المدير التنفيذي : شريف الليثي



دار توييا للنشر والتوزيع



dartoya2015@gmail.com



Dar.toya دار توييا للنشر و التوزيع



@Dar_Toya



Dar.toya



(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014



٣٥ شارع النصر - الهعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

الخبز

محمود الجعيدي

دار تويّا للنشر والتوزيع

سُرَّير ليالي وبأما لقيت وطُفت
وفي ليلة راجع في الضلام قمت سُفت
الخوف. كأنه كلب سدَّ الطريق
وكنت عازد أقتله.. بسَّ خُفت
(صَلاح جَاهِلين)

مُقَدِّمَةٌ

الهواءُ مُبتَلُّ اغتَسَلَ لتَوِّهَ بِمِيَاهِ الْأَمْطَارِ الَّتِي هَبَطَتْ فِي
غَيْرِ مَوْسِمِهَا الشِّتَوِيِّ..

مَوْقِفُ سِيَارَاتِ أَجْرَةٍ يَعْלוهُ سَقْفٌ مَعْدِنِي أَكَلَهُ الصِّدَأُ
وَلَمْ يَعْذِ يَقْوَى عَلَى حِمَايَةِ مَنْ يَقِفُ أَسْفَلَهُ..

أَصْوَاتُ الْمُنَادِينَ وَهُمْ يُعْلِنُونَ عَنِ الْجِهَاتِ الَّتِي
سَتَنْطَلِقُ إِلَيْهَا السِّيَارَاتُ، تَخْتَلِطُ بِنَهْيَقِ حِمَارٍ يَجْرُ عَرَبَةً
خَشَبِيَّةً قَدِيمَةً يَقُودُهَا عَرَبَجِي عَجُوزٌ رَثٌّ الشِّيَابِ.

تَتَنَاطَرُ لَطَخَاتٌ مِنَ الطِّينِ عَلَى بَنْطَالِ أَحَدِ الشَّبَابِ،
فِيَسْبُ وَيَلْعَنُ أُمَّ وَأَبَ الْعَرَبَجِيِّ الْعَجُوزِ، وَالْحِمَارِ الَّذِي
مَعَهُ.. يُبَادِلُهُ الْحِمَارُ بِنَهْيَقِ عَالٍ بَدَأَ كَرْدًا بَلِيغٍ عَنِ كُلِّ
السَّبَابِ.. أَثَارَ ذَلِكَ حَفِيظَةَ الشَّبَابِ، فَحَاوَلَ الْبَطْشَ

بالعربجي لولا أن حال دون ذلك بعض ممن يُمكن أن
نُطلق عليهم مجازاً أولاد الحلال..

حين استسلم الشاب لما وقع، ابتعد وهو يضربُ كفاً
بكفٍّ على سوء حظه في أثناء ذهابه لمقابلة عمل.. يلمح
الترعة التي يقبعُ فوقها كوبري حجري ما زال صامداً منذ
حقبة الستينيات..

يخطو أسفل الكوبري في ذلك الفراغ الذي اعتاد
المنادون وسائقو الأجرة أن يقضوا فيه حاجتهم..

تأفف كثيراً وحاول أن يغترف بعض المياها من الترعَة
لأجل مسح ما علق به.. يلمح طفلةً لا تتجاوز العاشرة
تقفُ أسفل حافة الترعَة، وقد ابتلت ملابسها وهي
تنظرُ إلى صفحة المياها، مصدومة، تتطوَّح مثل ورقةٍ جافةٍ
سقطت من فرعها وقت نسمات الخريف..

كانت الطفلةُ زرقاء العينين، ترتدي فستاناً وردياً اللون،
وقد أحاطت عنقها بعقدٍ منظومٍ من الذهب، تعليقته
على هيئة ميزان..

نسي الشاب ما كان يودُّ فعله.. أصابته بالوهم وفي
كونها إنسيّة من بني البشر.. اقترب منها بحذرٍ، وهو
يطلبُ إليها الرجوعَ حتى لا تسقط.. لم يبدو له أنها

سمعته أو حتى شعرت به.. ترنّحت واهتزّت مثل فرع
شجرة في مهبّ ريحٍ شديدةٍ..
رفعت يدها الصغيرةَ وأشارت..

جرى ببصره سريعًا فوق يدها حتى انتهت به على
صفحةِ المياه التي بدت صامتةً مثل أسفلتٍ طريقٍ دولي
سريعٍ..

شمّر كمّ بدلته بإحكامٍ، ثم مدّ يده في الماء حيث
أشارت، وقد ظنّ أنها أسقطت شيئًا.. برودةِ المياه جمّدت
أصابعه حين لامسها لكنه أكمل وغاص حتى معصمه..
لامس شيئًا طريًا، زلّقا، وقبل أن يقبضَ عليه أفلت
منه بسرعةٍ.. ارتعشت أعصابُه ونظر نحو الطفلة المستمرّة
في التحديق.. عاد يجولُ بيده حتى كاد الماء أن يُلامس
كتفه.. أخيرًا أمسك به.. رفعه مُتناسيًا ما حوله أو
مصدومًا..

عيناه جحظتا وسقط قلبه من فوق قمةِ جبلٍ صخري
حين خرجت يده بجثة فتاةٍ صغيرةٍ.. الزمن دار من حوله
ببطء.. أقسم فيما بعدُ بذلك.. قطراتُ المطر توقفت في
الهواء مُتحديةً قانون الطبيعة.. الهواءُ خرج من صدره
فتجمّد أمام عينيه، كتلةٌ ثلجيةٌ رقيقةٌ..

جال ببصره بين الجثة وبين الطفلة التي تقفُ
بجواره.. هل أصابه الوهمُ بخيالاته أم أنها فقط راحت
تتلاشي تدريجيًّا كبخارِ ماء يطفو فوق لوح زجاجٍ أبيض
ثم تختفي تمامًا..

حين استوعب الموقفُ قليلًا ودقَّق النظر في الجثةِ مرَّةً
أخرى اكتشف الحقيقة المُفزعة..

إنها جثةُ الطفلة التي كانت تقف بجواره منذ
لحظَاتٍ.

الفصل الأول

ليلةً أخرى جافةً، حارّةً، وصاخبةً من ليالي القاهرة..
حيث كل شيء ممكنٌ له أن يحدث، فهو يحدث، وبكلّ
أريحيّةٍ مُمكنةٍ.. على الناصية امرأةً فقيرةً تمدُّ يدها..
عيناها فقيرتان مُتعبتان.. أخرجُ لها ما جادت به يدي..
تدعوني بالعمارة وطولة الأجل، وراحة البال.. كومة طويلة
من الأدعية لو أصابني منها سهمٌ واحدٌ لعشتُ سعيداً..
وما يحدثُ في الأسفل لا يحدثُ في الأعلى.. إذ وعلى
نفس الناصية ونفس المربع لكن بامتدادٍ راسي حيث
الطابق الثاني عشر من تلك العمارة التي يضرب علوها
السماء وتلامس السحب المنخفضة، كانت في انتظاري..
(ولاء).. وبما تبقى من روعي الميته رُحت أضاجعها على

النحو الأبعش والأكثر أُمًّا.. تتأوّه فوق الفراش وتطلبُ
مَنِّي المزيدَ والمزيدَ من الأُمِّ.. وحين ظننتُ أنني انتهيتُ
هذه المرة، عادت ولاحظتني ثم أشعلت النار فيَّ مُجدِّداً..
ومُجدِّداً.

أخيراً انتهى نضالنا المُحرِّم، وكلانا أعلن استسلامه للآخر
دون رابحٍ أو خاسرٍ حقيقي.. بعدها تمطّعت مثل قطةٍ
شيرازٍ فاخرةٍ ولثمتني بقُبلةٍ أخيرةٍ على صدري ثم نهضت
تجرُّ ساقها بإنهاكٍ.. رميتها ثقيلةً في أذنها:
- آخر مرة.

لم تلتفتُ.. اتخذتُ مجلساً أمام التسيريحةِ تتأملُ
جسدَها الشاهقَ العاري، وحُبيباتِ عَرَقِي الذي ما زال
يلتصقُ فوقها.. تناولتُ سيجارةً طويلةً لامعةً تنتمي
لواحدةٍ من الماركات المستوردةِ ثم أشعلتها.. وأشعلتني
معها.

بطيءٍ سحبتُ نفساً عميقاً تابعته في انتظار أن تُخرجه
لكنها احتفظتُ به.. أمسكتُ ثديها الأيمن وراحت
تتحسسُ استدارته، ثم رفعته قليلاً كمن تُحاول أن تُقيِّمَ
وزنه.. امتعضت قائلةً:

- بقى أتقل من الأول.. مش كذا!؟

نظرتُ نحوه.. تأملته للحظة.. لم يخطرُ ببالي شيءٌ كهذا
من قبل.. فقط كانت تُعجبني استدارته وعِنبته المسكرة..
سألتها:

- سليكون؟! -

أوماتِ برأسها وهي تُراقبني من المرأة:

- آه.. عاجبك؟ -

هزرتُ رأسي بلا اكتراثٍ.. أودُّ إخبارها بأن هذا الجزء
فقد رهبته منذ فترةٍ طويلةٍ وتحديداً حينما زال غطاؤه
الشَّفافُ ووضحت ترهلاته.. هناك من أخبرني يوماً أن
ثدي المرأة لم يكن من شظايا الإغراء في الماضي إلا بعدما
تمت تغطيته.

ابتسمت ابتسامَةً ذات مغذى:

- مردتش عليا!

تصمّم على إزعاجي.. أعلمُ أنها مُغرمةٌ بقوامها إلى حدِّ
الهَوَس.. أشحتُ لها في ضيقي:

- إنت مسمعتيش أنا كنت بقول إيه؟!.. إحنا على كدا

و stop

ثم نهضتُ بكثيرٍ من الغضب.. اتجهتُ نحو النافذة لأفتحها قبل أن أتذكر أنني ما زلتُ عاريًا.. عُدت للداخل غير عابئٍ بضحكتها الساخرة وليدة بيوتِ الدعارة..

يدي لامست روبًا حريريًا أهدته لي سابقًا.. ارتداؤه الآن هو إعلانٌ أن كل شيء على ما يُرام.. بالطبع كل شيء كان على أسوأ ما يُرام.. انتقيتُ روبًا آخر وأنا ألمحُ خيبتها من طرفِ عيني.. قالت مدافعةً:

- إنت كل مرة بتقول كدا.

- المرة دي أنا بتكلم جد..

تركتُ خُصلةً من شَعْرها تسقطُ على عينيها دون أن تُعيدها كما اعتادت، وقالت بعدما استشعرتُ جدِّيتي:

- مالك يا مجدي.. فيه إيه؟!!

- افهميني.. دي نهايتنا سوا.

- نهايتنا؟!!

- أنا مخنوق.. مخنوق من كل حاجة حتى من نفسي..

- ومني أنا كمان؟

أصابع يدها الباردة تتحسَّس كتفي.. تركتُ صمتي يُجيبها.. عادت وأكملت بنعومةٍ:

- إنت زعلان مني في حاجة.. لو على موضوع الجواز،
خلاص مش هفاتحك فيه تاني..

امتعضتُ.. دفنتُ قولها مع رُوحِي الميته.. لم يكن ولن
يكونَ هذا هو السبب..

فتحتُ النافذة لتستقبلني أسطحُ المدينة الحسنة
فبدت أشبه بكائنٍ أسطوري عملاق..

نظرتُ إلى لافتةٍ إعلانيةٍ برّاقةٍ تحتلُّ سطحَ العمارةِ
المواجهةِ، وتُنيرها مئاتُ اللمبات تترعشُ أضواؤها وتتوهجُ،
ثم تتلوَّى كمن يُنذر بالشرِّ.

تحتضنني ولاء من الخلف وتلثمُ عنقي بقُبلةٍ.. تتحكم
فيّ مثل شخصٍ أخرق لعين.. تشلُّ تفكيري لثوانٍ.. لا
تجعلني أفكر بشكلٍ سليمٍ.. اتخذت قرار الابتعاد بصعوبةٍ
وها هي ذي تُثنيني عنه بسهولةٍ..

وددت لو استطعت أن أصرخ فيها بكلمةٍ واحدةٍ:
اخرسي!.. نعم اخرسي.. والآن!.. لكني لم أقولها.. لم تتحرك
بها شفاهي التي أنهكتها القُبلة.. القوةُ هي أن تمتلكِ
القدرةَ على الفعل وقطعًا أنا لا أملكها.

أتركُ لها زمامَ الأمرِ هذه المرة.. جولةً أخرى وآهاتُ
أخرى فوق فراشٍ ملعونٍ.. نعم هو أثقل مما ينبغي..

يُمكنني أن أخبركَ بذلك بكلِّ وقاحةٍ.. لا تقلقي.. فلم يعد ذلك يُثير اهتمامي.. للعلم أعتقد أنك تحتاجين إلى عملية تجميلٍ أخرى، لكن في منطقةٍ مُحرمةٍ.. لا تضحكي!.. أنت تعلمين مدى جدِّيتي في تلك الأمور.

تركتها بعد ذلك تغطُّ في نومٍ عميقٍ وقد أنهكها الشبقُ فلم تشعر بي حين تسللتُ من منزلها خلسةً كلصُّ يبحثُ عن الستر.

في الأسفلِ التقتُ عيناى مرةً أخرى بالمرأةِ الفقيرةِ وهى لا تزالُ تمُدُّ يدها للمارةِ وتدعو للمُحسنين كما دعت لي بطول العمر.. وراحة البال..

لا توجد راحة بال على الأرض..

هكذا صرتُ مُتأكدًا حين وردني اتصالٌ من رئيسي يطلبُ مني الذهاب إلى السجنِ العُمومي..

كدتُ أن أسبِّه سبَّةً بذئنةً جدًّا لولا أن أمسكتُ أعصابي.. نظرتُ في الساعة كانت السادسة صباحًا.. أجبتُه:

- الساعة ٦.. مش كان المفروض تعرِّفني من إِمبارح..

ردَّ بأن المصور الأول المُكلف قد أُصيب بإعياءٍ واعتذر،
وأنه لا يوجد غيري للذهاب من أجل تغطية زيارة لجنة
حقوق الإنسان إلى السجن.

حاولت أن أتملص منه وأتجج لكنني لم أكن قد
استيقظت تمامًا فخرجت مني كل الحجج واهيةً غير
مقنعة.

- شد حيلك.. عاوز ألحق الطبعة الأولى!

قالها اللعينُ وأغلق الهاتف في وجهي..

تنفسْتُ بحنقٍ ثم نهضتُ من الفراش.. صنعتُ كوبَ
قهوةٍ سوداءٍ وشربته في عجلة.. ارتديتُ سترةً صوفيةً ثقيلةً
تحسبًا لجوِّ الصباح البارد، ثم نزلت..

أمام مدخلِ العمارةِ شكرتُ نفسي على حُسنِ ذكائي
حينما وجدتُ الجوَّ كما توقعت..

ركبتُ سيارتي مُسرعًا وانطلقتُ..

استغرقتُ رحلتي ثلاث ساعاتٍ كاملةً حتى وصلتُ..

بعد المراجعةِ الأمنيةِ والتأكد من شخصيتي كنتُ قد
وصلتُ إلى حجرة مأمور السجن..

استأذنتُ في الدخول من أمين الشرطة القابع أمام الباب والذي نظر لي بقرْفٍ شديدٍ حين أخبرته أنني صحفي..

في داخل الحجرة كان يجلسُ المأمور على مكتبه مُنتفخ الأوداج وعلى وشك أن يطيرَ للسماء من فرط إحساسه المُفرط بالعظمة..

في مواجهة المأمور كان يجلسُ أفرادُ لجنة حقوق الإنسان.. كانت اللجنةُ مكونةً من ثلاثة رجال وامرأة.. الثلاثة رجال كانوا في مرحلة الكهولة وعلى وشك الموت.. المرأة تقتربُ من سنِّ اليأس وتُخفي وجهها المُستطيلَ خلف طنٍّ من مساحيق التجميل..

من المفترض أنهم شخصياتٌ عامة معروفةٌ لكن في الحقيقة لم أتعرف على أحدٍ منهم.. لا أعلم إن كان ذلك جهلاً مني أو أنهم فعلاً أشخاصٌ مجهولون.

مددتُ يدي أصفح المأمورَ أولاً الذي صافحني بيدٍ باردةٍ وأشار لي بالجلوس..

ابتسمتُ في وجه الثلاثة كهول وصافحتهم بسرعةٍ فائقةٍ قبل أن احتوي كفَّ المرأة بين يدي.. وحين لامستُ يدي يدها، أدخلتُ سبابتي في باطن كفها برفقٍ وابتسمتُ

لها.. ارتفع حاجباها في دهشةٍ عندما فعلتُ ذلك.. لكنها
دهشةٌ مصطنعةٌ.. أرى الشبق في عينيها.. كانت امرأةً
عريضةً لكن ساخنةً جداً.. تستهويني مثل تلك النساء.
- إنت جااااي تهزّر..

قطع سيلَ أفكارِي صراخُ المأمور.. في البدء أجفلتُ في
مكاني وظننتُ أني المقصودُ فكدت أن أزلَّ بلساني مدافعاً
عن نفسي بأيِّ هُراء، لكن لاحظت بسرعةٍ أنه يتحدث في
هاتفهِ ويهدد ويتوعّد (ابن كلب) مثلما راح يدعوه عقب
كلِّ سبّةٍ..

حين انتهى المأمورُ من هذا الـ (ابن كلب) ابتسم في
وجوهنا مُحاولاً أن يبدو سمحاً رقيقاً، وقال بحبٍّ:

- ناس ولاد كلب..

ثم حوّل وجهه نحوي:

- إنت اللي الجرنال باعتك؟

- مضبوط يا باشا.

أجبتهُ، وأنا أجري ببصري فوق ساق المرأة الأملس
متمنياً أن أصلَ إلى منبتهِ الطري.

- ليا كلام معك في الآخر..

قالها بصرامةٍ شديدةٍ، فابتلعتُ ريقِي بصعوبةٍ
وحاولتُ أن أبتسمَ مُحاولاً اصطناع الثقة فلم أستطع..
تناول المأمورُ قُبْعته التي يتوسطها النسرُ الذهبي
ووضعها تحت إبطه وأشار إلينا:

- اتفضلوا يا بهوات!

ثم اقتادنا إلى عنابر السجنِ يتقدمه كرشه الضخم،
شارحاً لنا النظامَ المعمولَ به وجزءاً من لوائح مصلحة
السجون التي تُشدد على أهمية احترام حقوق الإنسان،
وكيف أنه يبذلُ قصارى جهده من أجل ذلك، وإلى أيِّ
مدى يُحب المساجين السجن؛ لدرجة أنه قصَّ علينا قصةً
عن أحد المساجين وكيف بكى يوم خروجه بعد انقضاء
مدته..

قامت اللجنةُ بإجراء بيانٍ استقصائيٍّ وسؤالٍ بعض
المساجين عن أحوالهم، بينما مارستُ ما جئتُ من أجله
والتقطت بعض الصور السريعة مُحاولاً أن أبدو كمحترفيٍّ
حقيقيٍّ..

بعد ذلك ذهبنا إلى حوش السجن حيث لم نفعل
شيئاً سوى الاستماعِ لنكات المأمور، ثم مررنا على قاعة
الطعام وتفقدنا نوعية الأكل.. في الحقيقة كان كل شيء يبدو

رائعًا وجميلاً.. الضباط في غاية الطيبة، المساجين في غاية السعادة.. الطعام فراخ مشوية وسلطة بابا غانوج.. كادت عيناى تدمعان من فرط النفاق والكذب المفضوح.

تناولنا الفراخ المشوية وللأمانة كانت لذيذةً جدًا بحيث أنستني تعب اليوم كله.. علمت فيما بعد أن مَنْ طهاها أحد المساجين وكان يعملُ في مطعمٍ سياحي واتهم بطبخ لحم الحمير..

حين انتهينا من الجاتوه طلب مني المأمور أن أريه الصور التي التقطتها قبل أن أقوم بنشرها.. كان يخشى أن أكون قد التقطت صورة لا تروقه.. أخبرته أنني أحتاجُ إلى مكانٍ خاص لأتمكن من فرزها أولاً.. طلب مني أن أذهب إلى مكتبه.. ابتسمتُ في وجهه بسماجةٍ، وذهبتُ..

في طريقي جاءت معي المرأة بعدما تعللت بأنها نسيت تليفونها..

سرنا معًا يتبعنا عسكري يُخفي ورك دجاجةٍ داخل بنطاله.. قبل أن ندخل مكتب المأمور ناولته علبة سجائري فتلقفها مني في سعادةٍ.. طلبت منه أن يأتي لنا بفنجانٍ قهوة وناولته عشرة جنيهاً.. طار من أمامي مسرعًا كالحمامة ليُحضر ما طلبتُ.. غمزتُ للمرأة وسحبتها للداخل.

- أنت وقح..

قالتها.. لكنها لم تعنيها..

- بس لذيذ..

هكذا رددتُ عليها..

وفوق مكتب المأمور مارسنا الحبَّ كما أنزل.. كانت
كما توقعتُ.. (رائعة).. شفتاها رطبتان.. بشرتها ناعمة..
تضاريس جميلة وصغيرة.

فجأة.. دخل علينا العسكري.. تسمَّر في مكانه..
سقطت منه صينيةُ القهوة على الأرضِ في دويٍّ مُزعجٍ.. ورك
الدجاجة أيضًا سقط..

جحظت عينا المرأة وتجمَّدت حتى ظننتُ أنها ماتت..

بسرعةٍ شديدةٍ ارتديتُ بنطالي وعدَّلت لها ملابسها،
ثم جذبتُها معي للخارج.

- مش ضروري القهوة.. بس امسح الي اندلق عشان
المأمور ميعقش..

قلتها للعسكري وأنا أربت على كتفه.. ثم استطردتُ:

- الورك وقع الأرض..

وطرتُ من أمامه بسرعةِ الصاروخ.

- أنا هويدا.. إنت اسمك إيه؟
 سألتني، وهي تُحاول اللحاق بي.. لم أشأ إخبارها.. قلتُ:
 - وهيفيدك اسمي بإيه..
 ابتسمتُ:
 - طيب، هشوفك تاني؟
 تركتُها أمام بوابة الخروج، وأنا أُجيب:
 - سيببها بظروفها..
 ثم استدرتُ عائداً لغرفة المأمور دون أن ألتفت نحوها
 أبداً.

أثناء عبوري حوش السجن استوقفني مسجونٌ يرتدي
 البذلة الزرقاء.. كان أسمر الوجه، هزيل الجسم، قصيراً إلى
 حدٍّ ما.. تكلم بصوتٍ مُرتعشٍ خافتٍ:

- مساء الخير يا أستاذ..

قلتُ بحذر:

- مساء النور..

- أنا (حسن)

ثم أخبرني أنه مسجونٌ في قضية سرقة.. كدت أتركه حين قال ذلك.. لكنه أخبرني أنه فعلها بدافع الاحتياج لعلاج والده. إذا ما حاولنا أن نصف الإجرام إلى أبيض وأسود، فهذا الشاب زجَّ به في السجن بدافع جريمة بِيضاء. أصغيت إلى بقية حديثه باهتمامٍ عندما قال بصوتٍ حزينٍ:

- أبوي مات النهاردة.. وللأسف إدارة السجن رفضت توافق لي أن أحضر جنازته بسبب زيارة اللجنة..

لم أجد لديَّ ردًّا على كلامه، فاكتفيتُ بالصمتِ.. أخبرني أنه يخشى ألا يُلاقى والده الاحترام الكافي أو اللائق عند دفنه، ثم قال لي بلهجةٍ مُتوسلةٍ:

- ممكن تروح مكاني؟

كان الطلب صعبًا.. لا أعرفُ لماذا اختارني:

- شكلك طيب وابن حلال..

هكذا فسَّر لي حينما سألتُه عن سببِ اختياره لي.. وددتُ أن أرفض.. أنا لا أمتلكُ الشخصيةَ القادرةَ على التصرُّف في مثل تلك المواقف.. لكن كلمة لا كانت ثقيلةً فلم أستطع قولها:

- حاضر.

احتضنني، وكادت دموعه تُغرقي مثلما أغرقت وجهه..
خرجتُ من السجن، وتوجَّهتُ مباشرةً إلى العنوان
بعدما أرسلتُ الصور بالإيميل إلى الجريدة..
وصلتُ بعد ساعةٍ ونصف من القيادة المتواصلة..
صرتُ مرهقًا من كثرة القيادة هذا اليوم.
توقفتُ أمام المنزل.. كان العثورُ عليه سهلًا.. يكفي
أن أسمع صوتَ القرآن الذي يخرجُ من كاسيت قديمٍ،
وأشاهد صوانًا صغيرًا لأعلمَ أنني في المكان الصحيح..
صعدتُ مُسرِّعًا وسلَّمتُ على الموجودين بودٍّ شديدٍ..
أخبرتهم أنني صديق حسن وقد أوكلني بكلِّ ما يلزم،
فاستراحوا جميعًا وتنفَّسوا الصعداء كأنني أنقذتهم من
ورطةٍ كبيرةٍ..
أخبروني أن من المهم أن أتواجدَ أثناء الغُسل.. كنتُ
أعتقدُ أن الأمرَ يقتصرُ على تشييع جثمان ودفع بعض
الأموال، لكن الموضوع كان أكبر.. أخبروني أيضًا أن الميت
كان يعملُ في أمور السحر والجن وله الكثير من الكرامات،
لهذا يخشى الجميعُ الدخول. أعصابي انهارت حين علمتُ
ذلك لكنني حاولتُ أن أبدو هادئًا وواثقًا من نفسي..
قرأتُ الفاتحةَ بصوتٍ عالٍ، ثم دخلتُ.

كان التَّغْسِيلُ يتم في غرفةِ النومِ.. في الداخلِ لمحتُ
المُغْسَلِ ومُساعدَه.. كان المُغْسَلُ رجلاً كبيراً في السن تبدو
أماراتُ الصَّلاحِ والتَّقوى على وجهه.. مُساعدَه كان شاباً
أحَدب حاد الملامح، يُطِيع كل ما يقوله المُغْسَلُ بلا نقاشٍ،
لا يتحدث مُطلقاً، ويكتفي بإشاراتٍ من يده تعجَّبت لها
قبل أن أكتشفَ فيما بعدُ أنه أبكم.

بعدما انتهى من تجهيزِ الماءِ والأقمشةِ شرعاً في
العملِ.. أخبرني المُغْسَلُ أن الرجلَ يُكفن في ثلاثة أثوابٍ
بيضاء من القطن، بينما المرأةُ تُكفن في خمسة أثوابٍ.. لا
أعلمُ فائدة ما أخبرني به إلا أنني أومأتُ برأسي مُتصنِّعاً
الفهم والحكمة..

كان جسدُ المرحوم متصلباً ولا يُمكن معه خلع ملبسه..
تحركَ المُساعد بلا أدنى قلقٍ وناول المُغْسَلُ مقصاً كبيراً..
قام المُغْسَلُ بارتداء قُفازين على يديه وراح يقصُّ ملابس
الميت.. بدأ بالكُم الأيسر حتى وصلَ إلى الرقبة، ثم الكُم
الأيمن حتى الرقبة أيضاً، بعدها قام بقلبه على جانبه
الأيسر وسحب الملبسَ مع المحافظة على سترِ العورة..

ثم راح يعصرُ بطن الميت برفقٍ ثلاث مرَّاتٍ ليُخرج
الموجودَ به، وقام بغسلِ قلبه ودُبره بالماء الذي أخذ
ينسابُ عليه من إناءٍ نُحاسيٍ يحمله مُساعدَه..

عند ذلك كدتُ أفرغُ ما في معدتي.. تناولتُ مُصحفًا
وانشغلتُ بالقراءة فيه على صوت صبِّ الماء فوق
الجثمان.. حين انتهيا، طلبا مني أن أنادي الناس:
- كلنا لها..

قالها المُغسل وهو ينظرُ للجثةِ الملقوفةِ في الكفن مثل
نظرة الرّسام للوحة.

كان الليلُ قد تجاوزَ ثلثه الأول حين انتهينا من الدفنِ
ثم دخلتُ إلى محلِّ وجباتٍ سريعةٍ في طريقِ عودتي..
وتجاوزَ ثلثه الثاني حين هرعتُ وأنا ألف ذراعي
المجروح بقطعةِ قماشٍ مُتلفتًا حولي في ذعرٍ قبل أن أركب
سيارتي.

في الطريقِ توقفتُ بعد ذلك أمام صيدليةٍ ابتعتُ منها
علبة (فالسيوم)^(١) ثم وصلتُ إلى شقتي الصغيرة القابعةِ
بالدور الثالث بعمارةٍ حديثةِ الإنشاء، اشترتها لي ولاء منذ
عامٍ ونيف.. هدية، مكافأة.. سمّها كما شئتُ، فالْمُسْمِيَاتُ
لا تعينني.

(١) الفالسيوم: دواء يُستخدم لعلاج: القلق، الأرق، الألم

في الداخل سكبتُ على وجهي نصف زجاجة برفان
لأزِيلَ عني رائحةَ الموت.. تحترقُ عيناَي قليلاً قبل أن
تغدو الرائحةُ معدومةً..

نظرتُ في المرآةِ الكبيرةِ التي تعلو حوضَ الوجه..
أفحصُ عينيْن انسحبتا إلى الداخل ووجهًا أسمر مُمتقعًا
حفرته تعاريجُ الزمن.. خيطٌ من الشَّيبِ تخلَّلَ حلقات
شعر رأسي.. لم أكن كبيرًا في السن إن كنت تهوى معرفة
الأعمار، كما أنني لستُ مفتولَ العضلاتِ، ولكنني قادرٌ إلى
حدِّ ما على أن أخوضَ قتالًا وأتحمَّلَ اللكماتِ.. لا يوجد
في حياتي ما يُمكن أن أذكره.. لم أحقق نجاحًا أو إنجازًا
يستحق الذكر في حياتي.. فقط هي سنون تمضي وأخرى
تعبرُ ومعها فعلتُ كلَّ ما يُمكن فعله.. أكلتُ.. ضاجعتُ..
لهوتُ.. ماذا أيضًا.. ماذا يستحق الحياة من أجله بعد
ذلك.. فقد كل شيء قُدسيته وجماله وصار ماسخًا قبيحًا..
لم يتبقَّ أمامي سوى ظلام الليل والأفكار.

أفكرُ في الموتِ.. الانتحارِ بمعنى ثانٍ.. قد أجدُ جديدًا..
حكايةً أخرى.. سردًا مختلفًا.. وربما.. ربما، أنثى جميلة
لم أزرها بعد.. ابتسمتُ حين ورد إلى ذهني ذلك.. رحلة
الموت من أجل أنثى.. اسم يصلحُ لفيلمٍ تجاري بحتٍ.

نظرتُ نحو علبة (الفاليوم).. ابتلعتُ ريقِي.. النداء
المجنون يطرقُ باب عقلي ويصرخُ بتوحُّشٍ، افعَلها، ضَع
كُلَّ ما تبَقَى من حبوبٍ في يدك واقذف بها في فمك.

ابتلعتُ حبتين دفعةً واحدةً.. ربما بقية العلبة كفيلاً
بتحقيق موتةٍ هادئةٍ لي.. لكني لن أموتَ فوق فراشي
كرجلٍ بائسٍ يتم اكتشافُ جثته حينما تفوحُ رائحتها..
هذه مهانةٌ لا أقبلها لجسدي حتى وإن كنتُ لن أكونَ
شاهدًا عليها..

طَوَّحتُ بقية العلبة بعيدًا..

اقتربتُ من النافذةِ المفتوحةِ التي راحت تنقبضُ
وتنبسطُ على نحو متواصلٍ.. لا أعلمُ إذا ما كنتُ أترنح
حقًا أم أنه فقط شعورٌ كاذبٌ واستجابةٌ عكسيةٌ لمفعول
الفاليوم.

وقفتُ على حافة النافذة.. تضربني نسمةٌ هواء باردةً..
الليونةُ قبل الصفحة.. القفزُ لم يكن يومًا من هوايتي..
بقعة دم وأشلاء في منتصف الشارع مُغلّفة بسيرةٍ قذرةٍ
ستغدو كل ما يذكره الناس عني..

لا بد لشريط ذكرياتي أن يمرَّ سريعًا أمام عيني..

المشاهدُ تأتيني منه متقطعةً بالأبيض والأسود.. لا يُمكن لأحدٍ أن يفهمَ كُنْهها سِوَاي، لكن قبل أن تنتهي حياتي أردتُ أن أبوحَ بشيءٍ.. صحيح أنني أقفُ في مكانٍ لا يُوجد به صريخ ابن يومين أو حتى ثلاثة أيام، لكنني فقط أريد البوح..

رفعتُ صوتي عاليًا وأخرجتُ كلَّ ما يحيكُ في صدري..
صرتُ الآن مُستعدًّا للموت..

رفعتُ وجهي إلى السماء وأرختُ جسمي.. فجأةً..
انسحب الدم كله من عروقي وضرب في قمةِ رأسي ثم سقطتُ.

الفصلُ الثاني

قبضةً صقيعٍ ضربت وجهي فاستيقظتُ على إثرها..
ألقيتُ سبةً بذيةً جدًّا وأنا أرى ولاءَ تحملٍ في يدها
زجاجةَ ماءٍ مُثلجةً فارغةً حتى المنتصف.. مسحتُ الماءَ
الذي علق على وجهي، بينما قالت وهي تتخذُ مقعدًا
في مواجهتي:

- أنا فكَّرتك مُتّ.

نهضتُ من على الأرض وأنا أحرِّكُ عنقي ذات اليمين
تارةً وذات الشمال تارةً أخرى مُهشِّمًا الكتلَ الأسمنتية
التي جمَّدته.. أجبَّتها:

- والنعمة الموت ده عبيط.. عمَّال ياخذ الناس الحلوة
وساييني..

- إنت عاوز تموت؟!

- آه.. ما تيجي تموتي معايا!

نظرتُ إلى يدي المجروحة، فحاولتُ أن أخفيها بطريقةٍ عفويةٍ.. سألتُ:

- إيه اللي عورك؟

- مفيش.. كنت بعمل سلطة والسكين عورتني..

ثم تركتها وذهبتُ لأخرج كل قذارة البشرية.. حين عدتُ من الحمام كانت قد انتهتُ من إعداد وجبة إفطارٍ على غير عاداتها.. اكتفيتُ بكوب قهوة سوداء مع سؤالٍ لها:

- خير؟!

اقتربتُ مني بليوننةٍ، ثم أحاطتني بذراعيها:

- أكيد خير يا مجدي.

ثم أخبرتني أنها ترغبُ في زيارة أهلها.

كانت ولاء متمردهً منذ صغرها.. فرصة جامحة.. ذكية.. تُحبُّ كلَّ ما هو جديدٌ ومختلفٌ.. رأى أبوها أن كل ذلك لا يليقُ بابنته التي تعيشُ مراهقتها ومؤشرٌ خطيرٌ على سُمعتها فيما بعدُ. لذا، وعملاً بنصيحته قامت الأم بإخراج

ولاء من مدرستها الثانوية وأغلقت عليها تمامًا، فمُنعت من الخروج أو زيارة الأصدقاء.. كان ذلك أمرًا مؤلمًا وقاسيًا بالنسبة لها.. ولأن كل شيء مُقدر له أن يحدث فهو يحدث، لذا فقد هربت من المنزل وتركت خلفها رسالةً تعتذرُ وتشرحُ لهم الأسباب.. حين وصلت القاهرة وبعد أن ذهبت سكرةً ونشوةً الهرب أدركت أي مأزقٍ أوقعت نفسيها فيه.. فكَّرت أن تعودَ أدراجها، لكن نهاية فيلم (دعاء الكروان) لا تزال تتذكرها.. من حُسن الحظ أنها كان لديها كل المؤهلات التي تُمكنها من النجاح في مجتمعنا الشرقي.. مؤخرَةً سمينَةً.. صدرٌ ناهدٌ.. بشرةً بيضاء كالحرير.. وكل هذا مُغلفٌ بسلوفان من الرقة والدلال..

في البداية عملت في مطعمٍ صغيرٍ، وانتقلت منه إلى بوتيك ملابس حريمي لينتهي بها الحال في شقق وأحضان رجالٍ مُختلفين.. صنعت ثروةً جيدةً ثم بعد فترةٍ أصيبت بمرضٍ في الدم كادت أن تفقد معه حياتها.. بعد أن شُفيت ذهبت للحج وكرَّست نفسها للتعبد.. أخبرتني أنها ظلت لياليً طويلةً تبكي تحت أبواب الكعبة..

حين عادت من الحج افتتحت مصنعًا صغيرًا للملابس وتوقفت عن ممارسة الدعارة تمامًا.. آسف.. ليس تمامًا.. لم يسلم الأمر من بعض زبونٍ عابِرٍ يحملُ الكثير من الرز، أقصد الكثير من الأموال.

التقيتها أول مرةٍ أمام بوابة مصنعها.. كنتُ وقتها ما أزال صحفيًا تحت التدريب، أعكفُ على تحقيقٍ صحفي لا أهمية له.. توطدتُ علاقتنا تدريجيًا، وفي اليوم الأول الذي تم تعييني فيه بالجريدةِ أصرتُ على أن نحتفل معًا.. لم أكن أتخيل أن احتفالي معها سينتهي بمواقعتها داخل مكتبها ومن خلفنا كانت أصواتُ ماكينات الخياطة تُغطي على صوتِ تأوُّهاتها..

تذكَّرتُ كلَّ هذا حين أكملتُ قائله:

- وعاوزاك تيجي معايا..

- آجي أعمل إيه.. إنتي مجنونة؟!

- بُص يا مجدي.. أنا خرجت من بيتنا هربانة.. الحل الوحيدُ عشان يتقبلوني تاني، إني أرجع وأنا متجوزة.

ثم تقول لي إن والدها مات ولم تره.. وقد علمت أن والدتها مريضةٌ وترغبُ في رؤيتها فرمها تكون المرة الأخيرة..

ترددتُ.. قلتُ:

- لكن موضوع الجواز إنتي عارفة رأيي من زمان.
- هنعقولهم إنك جوزي بس.. ومفيش حد طبعًا هيقولنا إنه عاوز يشوف قسيمة الجواز..
- فكرت.. نظرتُ في عينيها.. التوسل والرجاء كانا يسبحان برفقة دموعٍ سالت فوق وجنتيها.
- ماشي.. إمتي عايزانا نروح؟
- هلل وجهها:
- بكرة.
- استدركتُ في كلامي سريعًا:
- بس ليا طلب!
- نظرتُ نحوي مُتسائلةً وهي تمسحُ عينيها:
- اللي إنت عاوزه..
- لمَّا نرجع.. تيجي ننتحر سوا!
- أجابت دون تفكير:
- موافقة.. هفتح لك الشباك، ترمي نفسك منه، وأنا وراك علطول..
- إنتي بتهزري.. صح!!

- يعني أسيبك تهزّر لوحذك يا حبيبي.

ثم وضعت يدها على فمها لتُخفي ضحكتها.

اليوم التالي.. جاء سريعًا.. لا أعرف كيف.. فقط حين
أشرفت الشمس انطلقنا معًا..

لم أكن أعلم الطريق جيدًا لكن بكثيرٍ من التكنولوجيا
الحديثة المتمثلة في الخرائط الإلكترونية، وبقليلٍ من سؤال
المارة اقتربنا على الوصول.. مررنا خلال ذلك على عدة
مدنٍ مشهورةٍ لم أحلم يومًا بأن أدخلها.

في الطريقِ عكفتُ مع ولاء على رسم سيناريوهات
وحواراتٍ متعددةٍ حين لقاء الأهل.. ستكونُ هناك أسئلةٌ
كثيرةٌ من نوعيةٍ ماذا أعملُ حتى أبررَ ثمنَ السيارةِ
الفارهةِ التي أقودُها والملابسِ الفخمةِ التي ترتديها ولاء..
أن أقولَ إنني لا أعملُ لهو عارٌ بالتأكيد.. ربما حكاية عن
نجاحي في تأسيسِ شركةٍ للاستيراد والتصدير هي الأنسبُ،
سهلة الحكي وقابلة للتصديق.

قالت ولاء وهي تبتمُّ:

- عليًا النعمة إنت شكلك هتفضحننا!

- يعني لازم تقولي إن أهلك أصلهم صعيدة.. على كذا
لو اكتشفوا إني مش جوزك رقبتي هتطير فيها.

أطلقت ضحكةً قصيرةً، ثم قالت:

- متقلقش.. أنا هكون معاك دايماً..

لم أكن في حاجةٍ لسماع تلك الجملة الأخيرة، أعلم أنها
يمكن أن تُقنع أي شخصٍ بما تقول.. لو أخبرت أحدهم أن
الشمس لن تُشرق غدًا لصدَّقها.

علمت منها أن لها أخًا واحدًا يُدعى (طاهر)، وأن أمها
تُدعى (راجية)، ثم راحت تحكي لي بعض التفاصيل عن
قريتها.. من خلال كلامها استطعت أن أكوّن صورةً ذهنيةً
ناقصةً عن شكل قريتها، لكن لم تكتمل تلك الصورة إلا
حين وصلنا.. باختصار كانت قريةً مصريةً حديثةً أصابها
عتةُ القرن الحادي والعشرين فصارت مسخًا قبيحًا من
المدنية والتخلف.

كنا قد وصلنا مع الدقائق الأولى لغروب الشمس..
توقفنا بالسيارة أمام منزلٍ كبيرٍ في نهاية القرية تحرّسه
بوابةٌ حديديةٌ حديثةُ الصنع ويقع على أطراف القرية..
خلف المنزل مباشرةً لمحتُ وجه الشيطان!

كان المنزل مُستطيلاً، أشبه بعلبة ثقاب مكونة من ثلاثة أدوارٍ، له بوابةٌ حديديةٌ حديثة الصنع، أظن أنها قد صُنعت في فترة الانفلات الأمني إبان ثورة يناير.

طرقت ولاء الباب برويةٍ، بينما كنتُ أقفُ بجوارها مُرتبِكاً وأنا أنظرُ بين الحين والآخر إلى التل الأحمر الكبير الموجود خلف المنزل بمسافةٍ متوسطةٍ نسبياً.. أخبرتني ولاء أنهم يُطلقون عليه وجه الشيطان..

أوشكتُ أن أسألها عن سبب التسمية حين فُتحت البوابة وظهر من خلفها (ولاء أخرى) أكلها الزمنُ وألبسها ثوبَ العجز ونظارةً طبيةً كعب كوباية.

من المفترض أن هذه (راجية)، ومن المفترض أيضاً أن تصرخَ من الفرحة أو الصدمة أو حتى تسقط على الأرض مغشياً عليها حين تُشاهد (ولاء):

- إنتوا مين؟

سألتنا ببرودٍ شديدٍ وهي تجولُ ببصرها بيننا.. هذه ابنتك أيتها العمياء الحمقاء.. أقسم أنني كدتُ أقول ذلك لولا أن استبقتني ولاء:

- إزيك يا أمي!

اتسعت عينا راجية وارتعشت شفتاها.. نعم هذا هو
ردُّ الفعل المطلوب.. أنا سعيدٌ الآن.. أكملت ولاء وهي
تفتح ذراعَيْها:

- أنا ولاء.

قالت راجية مصدومةً:

- ولاء مين؟

ثم صمتت واستمرت تنظر في وجه ابنتها غير مُصدِّقة..
بعد لحظةٍ رددت وكأنها قد أفاقت من حلمٍ طويلٍ:

- ولاء!

واحتضنتها بشوق غياب السنين.. في الحقيقة كان
مشهدًا تراجيديًّا لا يليق إلا بأفلام الستينيات.

انتظرت حتى انتهت كلتاهما من البكاء والنواح.. في
تلك الأثناء أتى رجلٌ ضخْمُ الجثة، يتصبَّب العرقُ فوق
جبينه ويرتدي ملابسٍ داخليةً التصق فوقها ترابٌ أحمر،
راح يُتابع ما يجري وهو يرفعُ حاجبه بينما شفتاه تتلويان
في ضيقٍ.. احتمالٌ كبيرٌ أن يكون هو أخاها (طاهر)..
وا احتمالٌ ضئيلٌ أن يكون زوج أمها.. تمنيتُ في قرارة نفسي
أن يكون الاحتمالُ الأخيرُ هو الصحيح حتى أرى الصدمة
على وجه ولاء.. شرير أنا.

بالفعل كان هو..

- طاهر..

احتضنته ولاء وهي تنطقُ باسمه، فاستقبلها بترددٍ جعلها تكتفي بعد ذلك بقُبلة على خدِّه وهي تسأله:

- عامل إيه؟

- في نعمة كبيرة.

التفت نحوي مستفسراً في صمتٍ:

- مجدي.. جوزي..

أجابته ولاء بسرعةٍ.. صافحته بقوةٍ وأنا أنظرُ إليه بطرف عيني مُحاولاً أن أبدو واثقاً.

راجية جذبت معها ولاء إلى الداخل دون أن تلتفتٍ نحوي مما أشعرتني أنهم قد نسوني..

سرتُ خلفهم فعبرنا في البداية مدخلاً ضيقاً كالدهليز حتى وصلنا إلى صالةٍ مربعةٍ تم تنظيمها مثل "قعدة عربي" حيث تغطت الأرضية بحصيرةٍ ملونةٍ كبيرةٍ ومن حولها عدة وسائد ومساند إسفنجية على شكلٍ دائرةٍ مكتملةٍ.. في نهاية الصالة لمحت كمودينو أثرياً عملاقاً

بحجم سيارة وقد تراصت فوقه الكثير من المشغولات
الفضية والنحاسية ذات الطابع الفرعوني.

بعد ذلك سعدنا إلى الطابق الثالث حيث سنبنيُّ
تلك الليلة، وفي الصباح سيكون هناك شأنٌ وكلامٌ آخر
كما أخبرتنا راجية.. لم أجادلها فقد كنت مرهقًا.. لكنني
فقط تعجبتُ من صعودنا إلى الدور الثالث، من الطبيعي
والمعتاد أن تكون غرفةُ الضيوفِ في مواجهةِ المدخلِ أو
حتى في الدور الأول ليتسنى لأهل البيت التحرك بحرية.
الدور الثالث كان عبارةً عن شقة لها بابٌ قديمٌ
مصنوعٌ من الخشب الذي نخره السوسٌ..

مدت راجية يدها إلى صدرها وأخرجت خيطًا صغيرًا
ينتهي ببضعة مفاتيح، انتقت أحدها وأدارته في القفل..
سبقتنا في الدخولِ ثم أشعلت النور وأشارت إلينا بأن
نتبعها..

اضطرتُّ إلى أن أحنى رأسي حتى أدخلَ، فقد كان
البابُ قصيرًا لا يُناسب شخصًا طويلًا مثلي..

بمجرد أن دخلت أنا وولاء حتى أغلقت علينا راجية
الباب بسرعةٍ وسمعت صوت المفتاح وهو يدورُ من
جديدٍ داخل القفل.

- حبسونا!

قلتها، وأنا أبتسمُ لولاء التي امتقعَ وجهها.

- ربنا يستر!

بالفعل، ربنا يستر.. ما حدث الآن لا يُبشر بالخير.

بالنسبة للشقة التي احتجزنا بها، فقد كانت متربةً وجوُّها خانقٌ.. الأثاث بها قليلٌ وبسيطٌ إلى أقصى حدٍّ.. الجدران تقشّرت ألوانها وبهتت إلى حدِّ الضياع. أما السقفُ فقد سكنته الكثيرُ من العناكب والقليلُ من السحالي.

- شايفه السحالي يا ولاء.. دي سحالي حبنا!

اللعنة لم أفقد خِفة ظلي بعد.. قالت ولاء بحنقٍ:

- إنت هتهزرا!

ثم دارت بسرعةٍ في كل الأرجاء وفتحت كل الأبواب وفي النهاية أشارت لي:

- أوضة النوم أهي.

وشرعتُ في ترتيب السرير وإزاحة الحشرات التي كانت تنام فوقه في سلامٍ، ثم دخلتُ في نومٍ مُتذبذبٍ؛ بينما قضيتُ الليل يقظًا من كثرة التفكير.

حين أقبل الفجرُ كنتُ قد أنهكتُ جسديًا وعصبيًا..

نظرتُ إلى ولاء التي استيقظت شاحبة الوجه.. أخبرتني
أنها حلمت حلمًا مُزعجًا.. حين سألتها عن فحواه، قالت
إنها لم تعد تتذكره.. قرّرت من الأفضل أن أبدو مُتفائلًا..
قلتُ بهرج:

- أكيد هنفطر عسل نحل ومشلتت..

ابتسمتُ بهمرارةٍ ولم تُجب.. أكملتُ قائلاً:

- ولدتك بخيلة ولا إيه!

قلتُها، ثم فتحتُ نافذة الغرفة لتطالعني بيوتُ القريةِ
غير واضحةٍ في غبشةِ الفجر..

رأيتُ طاهر يخرج من المنزل مرتديًا جلبابًا أبيض
بالكاد يصل إلى عقبيه ثم يتوجه نحو المسجد للصلاة..
عدتُ للداخل مُستكملاً حديث التشاؤم مع ولاء..

بعد ساعةٍ تم إطلاقُ سراحنا، حيث جاءت راجية
وافتحت لنا ودعتنا للإفطار..

وجدنا طاهر وقد سبقنا في الجلوس وقد رسمَ على
وجهه لوحة غضبٍ، وراح يلوّك قطعة سريس في فمه..

ألقيتُ عليه تحيةً، ثم جلستُ على الطرف الآخر من
المائدة..

أتت أطباقُ الطعام تحملها امرأةٌ في العقد الثاني من
العمر، بيضاء، ممتلئة اللحم، بشوشة الملامح وترتدي
جلاية بيت زرقاء.. علمت أنها (دلال) زوجة طاهر..

في البداية تناولنا جميعًا الطعامَ في صمتٍ وترقبٍ..
وأخيرًا تكلمت راجية وللعجب لم تأتِ على ذكر أو عتاب
ولاء.. اكتفتُ بقولها:

- اللي فات مات.

ثم راحت تحكي لنا قليلًا مما مضى.. تُخبرني أنها
تزوجت والد ولاء وهي في الخامسة عشرة كما هي عادة
أهل القرية في تزويج بناتهم في سن صغيرة.. لم يكن والد
ولاء شخصًا قاسيًا كما أخبرتني ولاء (هكذا قالت).

- ولاء مقاتلش كدا..

وهكذا قلتُ أنا..

نظرت راجية إلى ولاء نظرةً مُعاتبَةً، وكأنها واثقةٌ من
أنها قالت ذلك، ثم عادت تُكمل.. قالت إن الحياة كانت
ضنك وما يجنيه الأب لم يكن يكفي لمعيشة الأبناء، لهذا
كان دائمًا ما يثورُ ويلعنُ كل ما هو موجودٌ، لكنه حين

يختلي معها كان يبدو مثل طفلٍ صغيرٍ.. كثيراً ما أخبرها أنه يخشى على ابنته الكبرى فهي لا تزال غضةً وجاهلةً بهذا العالم القبيح.. ثم هربت ولاء.. عند تلك النقطة صمتت.. أطرقت ولاء برأسها في الأرض.. قلتُ محاولاً تجاوزَ الأمر:

- وبعدين؟

أجابت:

- مبقاش قادر يرفع وشه في عين الناس.. اتكسر.

ثم حكيت كيف بحث عن عقد عمل في الخليج هرباً من ضيقة العيش ثانياً ومن كلام الناس أولاً.. لسوء الحظ لم يستطع العثور عليه إلى أن ساعده أحد الأقارب في السفر إلى ليبيا.. اشتغل هناك صياداً فوق أحد مراكب الصيد حيث استطاع أن يدّخر مبلغاً معقولاً من المال، دفعه فيما بعد لأحد المهربين لكي يتسلل إلى إيطاليا.. وفي إيطاليا عمل في مزرعة عنبٍ وتزوَّج من امرأةٍ مغربيّة، وأنشأ أسرةً ثم مات منذ سنواتٍ قليلةٍ ودُفن هناك.. بعد ذلك زارتهم زوجته المغربية، واشترت لهم هذا المنزل الكبير مع قطعة الأرض التي يقوم طاهر بفلاحتها حالياً، ثم غادرت بعدما أخبرتهم أن تلك كانت وصية زوجها لها وإليهم.

بعد أن انتهت راجية من حديث الذكريات، طلب طاهر أن يُحدثني على انفرادٍ.. لم أجد سببًا للرفض.. سرتُ معه إلى غرفةٍ أخرى.. نظر وراءه حتى يتأكد من عدم مجيء أحدٍ خلفنا ثم أغلق الباب جيدًا.. صار لديّ شعورٌ قوي بأنه ينوي إيذائي أو إجباري على قول حقيقتي.. هي لكلمةٌ واحدةٌ منه وبعدها سوف أخبره بكلّ شيء.. عليك اللعنة يا ولاء.. أقسم أنني سوف أخبره بكلّ شيء..

نظر نحوي بغموضٍ شديدٍ:

- مجدي!

- تحت أمرك يا طاهر بيه.

قلّتها وأنا أحاول أن أبدو هادئًا حتى أمنعَ الخوفَ من التسلل إلى صوتي.. ثم وبلا سابقٍ إنذارٍ احتضنني.. الآن أنا خائفٌ كما لم أخف من قبل.. هل يظن هذا الأحمق أنني شاذ؟!..

- ألف ألف مبروك..

بعد تهنئتي على زواجي من ولاء، أخبرني أنه يشعرُ بالفخر والسعادة لقدمي، ثم استرسل بعد ذلك في كلامٍ هو مزيجٌ من الهراء.. والهراء!

الأيام التالية مرّت عاديةً بخلاف أنهم كانوا يُغلقون علينا الشقة بالقفل، وكانت الحكمة في ذلك كما قالت راجية هي أن دلال أحياناً تخرجُ لقضاء بعض من حاجتها، ومن المشين أن يطلع عليها غريبٌ مثلي.. حجةٌ واهيةٌ لكني قبلتها على مضضٍ وبلا نقاشٍ منعاً للإحراج..

كانت راجية امرأةً متدينةً تستيقظ مبكرًا لتصلي الصبح ثم تُمارس بعض الأعمال المنزلية المعتادة إلى حين استيقاظ بقية أهل البيت.. كانت تتذمر كثيرًا من كسل (دلال)، لكن وللحق كانت الأمور بينهما تسيرُ بشكلٍ مثالي كما يفترض بين حماةٍ مصريةٍ وزوجةٍ ابنها.. باختصارٍ، كان الأمرُ بينهما جحيماً مُستتراً.

كنت أمضي معظم وقت النهار برفقة طاهر.. كان طاهر في أواخر الثلاثينيات من العمر.. مربع الوجه، ضخم الجثة، كثيف شعر الرأس والذقن، أقرب إلى أن يكون دبًّا بشريًّا.. صوته مرتفعٌ أثناء الحديث، دائم السباب والشجار على أتفه الأسباب.. في البدء ظننته شخصيةً سمجةً شريفةً، لكنني بمرور الوقتٍ وبعد صُحبته أيقنتُ أنه يملك قلبًا أبيض مثل الحليب وشخصيةً هشةً يُحاول إخفاءها وراء غلظةٍ يصطنعها..

حين كنا نسيرُ في وسط الأراضي المزروعة كان يتخير
منها مزارع الفول ثم يدخلها ويخرج منها بحفنةٍ من
الفول الأخضر، يحتفظُ بها داخل جيوبه ويأكلها فيما
بعد كالبلغلِ.. في البدء تعجّبت واستنكرتُ لكن بمرور
الوقت رحّت أشاركه فيما يفعل.. لم أكن أتخيل أن ذلك
الخضار يحملُ هذا الكم الكبير من البهجة.

بالنسبة لقضاء اليوم هناك فلم يكن به شيء مميز..
كان مللاً في مللٍ.. ولاء تقضي كل النهار مع والدتها في حين
كنتُ أعانق الأريكة وأتابع ما تعرضه شاشة التلفزيون
المملة..

كان طاهر يعودُ في الثالثة عصرًا، ولم يكن يتأخر دقيقةً
واحدةً عن مواعده.. بعد ذلك نجلس معًا حول مائدة
طعام الغداء.. طبيعى أن يكون البط والإوز هما الأطباق
الرئيسية في كل يوم.. كان ذلك أمرًا مُبهجًا وجميلاً، وأيضًا
لذيذًا.

حول الطعام كنتُ أحب أن آكلَ في صمتٍ.. على
العكس مني كان طاهر يُحب الحديثَ أثناء الأكل، كان
يحكي عن كل شيء وأي شيء.. كنت أستقبل حديثه بهمةٍ
خافتةٍ وأحيانًا بضحكةٍ باردةٍ إذا ما قال دعابةً أو شيئًا ما
غبيًا.

بعد الغداء كنا نجلسُ من جديدٍ لنستمعَ إلى بقية حديث طاهر برفقة أكواب الشاي المُعطر بالنعناع.

عند حلول المساء كنتُ أخرجُ برفقة طاهر وأجلس معه على قهوة بلدي صغيرةٍ تملكها امرأةٌ تُدعى (سنية) بعد أن ورثتها عن زوجها الذي قضى نحبه في السجن بسبب قضية حشيش، والذي هو بدوره كان قد اشتراها من أرملة صاحب القهوة الأصلي والذي مات أيضًا نتيجة انفجارٍ في الزائدة الدودية.

كانت القهوة تبعدُ عن المنزل شارعين وثلاث بلاعات لا بد أن تنتبه لها جيدًا حتى لا تسقط في إحداها..

على مدخل القهوة دائمًا تجلسُ سنية وهي ترتدي جلبابًا أسود وتلف رأسها بإيشارب أخضر مُطرز تُتبع كل ما يجري مثل قائدٍ حربي يخوضُ واحدةً من معاركه المهمة..

على الرغم من أنني جلستُ من قبلُ في أماكن أكثر رقيًا فإن تلك القهوة كان لها طابعٌ جميلٌ ودفءٌ شعبي.. رواد القهوة أغلبهم من ساكني المنازل المجاورة تعرفهم سمية بالاسم وبمشاريبيهم المعتادة.

عرّفني طاهر على سنية فابتسمت في وجهي ابتسامَةً
عريضةً ذكّرتني بتحفة كاريوكا في فيلم شباب امرأة، ثم
حيّتني بحرارةٍ وأرسلت لنا زجاجتيّ حاجة ساقعة فئة
الصاروخ مع صبي القهوة والذي يُدعى (سنفور) كونه
يُشبه شخصيةً من شخصيات (السنافر).

كنتُ أجلسُ أنا وطاهر ما بين الساعة والساعتين
نقضيهما في لعبة الطاولة أو الدومينو، وأحياناً في متابعة
المباريات المُشفرة.

على العاشرة مساء كنا نعودُ حيث نتناول العشاء
بعدها يذهبُ الجميع للنوم.. كان هذا أمراً مقيتاً بالنسبة
لشخصٍ ليّليّ مثلي.. في الليل كنتُ أمارسُ الحبّ مع ولاء
رغبةً في تمضية الوقت ليس أكثر.

ما أن تخلد ولاء للنوم حتى كنتُ أقضي معظمَ
الليل أتقلب على الفراش، أو أحدق في السقف، أو أقضم
أظفاري.. باختصار كان هذا هو ملل الجحيم بعينه.

الفصل الثالث

- عاوزك تيجي معايا عرس واحد صاحبي..

كان أمراً جميلاً أن يطلب مني طاهر أن أذهب معه بعدما انتهينا من تناول العشاء.. وافقت على الفور.. أخيراً سوف أكسرُ حالة الملل التي أعيشها منذ أن وطئت قدماي هذه القرية..

صعدت إلى الأعلى فرحاً لتغيير ملابسني مثل طفلٍ صغيرٍ سوف يذهبُ إلى الملاهي مع والده..

فوجئتُ بولاء تصعد خلفي بسرعة.. حدّرتني من الذهاب إلى هناك وطلبت مني أن أنزل لطاهر وأعتذر له.. بالطبع رفضتُ.. كاد الموضوع أن يتحول إلى شجارٍ عنيفٍ معها لولا أن تمالكْتُ هي نفسَهَا..

نزلتُ إلى طاهر يتبعني تحذيرٌ منها بأن ألتزم الأدب
هناك وأن أغض بصري حتى لا أثير الأهالي.. تهكمت:
"عزيزتي أنت تعلمين أن الأدب هو مرادف لاسمي".

في الأسفل وجدتُ طاهر في انتظاري وقد ارتدى جلبابًا
بنياً فضفاضاً ووضع فوق رأسه عمامةً كبيرةً..

قامت دلال بإحضار مبخرةٍ كبيرةٍ وراحت تدورُ بها
حول زوجها وهي تُردد بعضَ الأدعية من الموروث
الشعبي، لكن وعلى ما يبدو أن طاهر همس في أذنها
بنكتةٍ قبيحةٍ فانطلقت تُفقهه بمياعةٍ لا تليقُ سوى بفتاةٍ
ليل.. حدجتها راجيةً بنظرةٍ كالرصاصة، وقالت:

- بالراحة.. وطَي صوتك.. الجيران يقولوا علينا إيه!

نظرت لها دلال ببطءٍ، وهي تُحاول أن تكتم نفسها:

- يقولوا اللي يقولوه.. أنا بضحك مع جوزي..

قالت راجيةً وهي تُبخها:

- أنا مبحبش ده..

مدت دلال يدها ووضعتها حول صدرِ طاهر:

- جوزي..

كررت راجيةً بغضبٍ:

- قلت مبجش ده..

حاولت دلال أن تدخل معها في معركةٍ، لولا أن نفخ طاهر من أنفه كالخرتيت فالتزمت الصمت، بينما أشارت راجية إلى المبخرة:

- يلا كملي!

ويذعانٍ أمسكت دلال بالمبخرة وهي تُتمتم في سرّها..
وحين انتهت خرجتُ أنا وطاهر..

توجّهت نحو سيارتي، لكنه أشار لي بالانتظار ثم تركني واتجه نحو جراجٍ قديمٍ متآكل الجدران.. فتح بابه المصنوع من الصاج وغاب في الداخل طويلاً..

حين هممتُ بأن أنادي عليه سمعتُ صوت فرقةٍ أشبه بانفجار قنبلةٍ صغيرةٍ أعقبها هديرٌ مُحرك سيارة، ثم خرج وهو يركبُ سيارةً صدئةً تجاوز عمرها النصف قرن تقريباً..

أشار لي بأن أركب بجواره.. فكّرتُ أن ألعنه ثم أجري هرباً منه.. لو فعلتُ ذلك الآن لذبحتني ولاء.

فتحتُ باب السيارة فسقط مضاد الصدمات الأمامي من مكانه.. نظرتُ مُندهشاً.

- سيبه!

قالها وهو يضحك.

انتقيتُ مكاني بصعوبةٍ في المقعد المجاور له.. عبثًا
حاولتُ بقدر استطاعتي أن أمنعَ حشراتٍ مُخيفَةً أن
تلدغني.. في الواقع كان الأمرُ أشبه بغزو .

عاد يضحكُ وهو يُزيح بعضَ البقِّ عن قفاه:

- هع هع هع.. إنت خايف من حبة بق!

رددتُ:

- بق!!

- حمارتك العرجة تغنيك عن سؤال اللئيم.

لا أعلم لماذا ذكر هذا المثل.. قلتُ:

- أكيد اسمها زوبة..

ضحك مرةً أخرى:

- زنوبة.

- مين؟!!

- زنووووبه.. أنا مسميها زنوبة.

- وماله.. أهو كله جنان.

ثم تذكرت أمر الضجيج الذي أسمعُه كل ليلةٍ، فسألتهُ عنه.. لم يردَّ بسرعةٍ ورأيتُ الأفكارَ والأكاذيبَ تنهشُ في جبينه.. قال لي بعد برهةٍ إن الصوت مصدرُه بالوعة الصرف الصحي التي يقوم بتنظيفها كل مساءً، ثم غيرَ الموضوع بسرعةٍ وانتقل للكلام عن الزواج والأفراح.. كان يمكن أن أجادله وأقوم بإحراجِه لكن فضَّلت أن أبتلع كذبه المفضوح بإرادتي.. على الأقل هو لم يقل إن هناك مخلوقاتٍ فضائيةً هي التي تُصدر هذه الأصوات وإلا لكنتُ أفحمتُه.

أخبرني أن سن الزواج يختلفُ كثيرًا عن المدن، فمن تبلغ الـ ٢٠ عامًا تُعتبر في حُكم العانس، وفيما مضى كانت هناك مغالاةٌ رهيبَةٌ في المهور نتيجة موروثةٍ قديمٍ مفاده أن قيمة ومكانة العروس وعائلتها يتحددان بناءً على المهر، وأن ذلك أدَّى إلى عزوف شبابِ القرية عن الزواج من بناتها والاتجاه إلى الزواج من قرى أخرى، إلى أن جاء أحدُ مشايخ الصوفية واقترح أن يتم تخفيضُ قيمة المهور وتم جمع أعيان البلد والاتفاق على ذلك.

في الحقيقة لم أكن مهتمًا بما يقول، كنتُ مُنشغلًا في الفرقة التي راحت تصدرُ من السيارة بين الحين والآخر..

بلا شك سأموثُ اليوم مُحترقًا من السيارة أو مشلولًا
بسبب حديثه.. لكن فجأةً رمى قبلتهً في أذني:

- والدخلة عندنا بتكون بلدي^(١)..

ثم ضحك ضحكةً طويلةً حين قال ذلك فامتقعَ
وجهي بشدةٍ.

- طخ.. طخ..

أطلق طاهر طلقتين من طبنجةٍ كان يُخفيها بين طيّات
ثيابه احتفاءً بالعريس الذي راح يرقصُ وسط أحبابه
وأقاربه بمنديلٍ مُلوّثٍ بغشاء بكاره زوجته، والزغاريد
تتعالى من حوله..

كان هناك تناغمٌ شديدٌ بين الللمات التي تم رصُّها
بعنايةٍ شديدةٍ حول منزل العريس..

(١) الدخلة البلدي: هي عادةٌ قديمةٌ يتم خلالها الاعتداءُ الوحشي
على الفتاة بمعرفة أهلها علي يد خالتها أو عمتها بأساليب لا يمكن
ذكرها وعقب فضّ غشاء بكارتها يُلطخون به قطعة شاشٍ ليأخذوه
لمكان سكنها مزغردين وصارخين أن ابنتهم شريفة كي يخرج الجميع من
منازلهم في منتصف الليل ليروا ذلك المشهد المُقزز، تاركين خلفهم فتاةً
مُحطمةً نفسيًا وجسديًا

كنتُ أتابعُ ما يجري من طقوسِ الزواجِ مُندهشًا..
توقَّفَ طاهر عن وصف ما يحدثُ لي وتركني أنشاجرُ مع
أفكاري حين سلَّم على رجلٍ أسود كالليل له لحيَّةٌ مثل
لحيَّةِ الجَدِّي ويعرجُ على ساقٍ خشبيَّةٍ.. اسمه (عثمان)
وشهرته بين الجميع (هتلر)، وكان يعملُ نجار مسلح
وحاليًا هو مقاول عمال كما أخبرني طاهر..

ابتسم هتلر حين لاحظ نظرتي إلى ساقه الخشبيَّة.. قال
بسخرية:

- معلش.. أصل سبتها في الكويت أيام حرب الخليج..

ثم سحب طاهر بعيدًا عني دون كلمةٍ أخرى.. راقبتُ
من بعيدٍ حديثهما المتوتر والذي انتهى بأن احمرَّ وجهُ
طاهر ثم طوَّح بيده في اتجاه هتلر وألقى سبَّةً لم أسمعها
لكني ميَّزت حروفها على شفثيته..

وهكذا لم يدم حديثهما طويلًا إذ سرعان ما سار طاهر
باتجاهي مُتلفتًا بين الحين والآخر نحو هتلر الذي راح
يُتابعه في صمتٍ.. ولأول مرةٍ منذ أن التقيتُ طاهر ملحتُ
شياطين الجحيم تتراقصُ فوق جبينه.

استيقظتُ من جديدٍ على الضجيج الذي يأتي من
الأسفل، هذه المرة كان واضحًا وأكثر قوةً.. حاولتُ أن
أعودَ للنوم لكنني عجزتُ.. غبظتُ ولاء على نومها الثقيل
وودت لو أسقطتها على الأرض..

تناولتُ علبة سجائري، ثم أشعلتُ سيجارةً ووضعتها
في فمي.. سحبتُ نفسًا طويلًا وأنا أراقبُ ما تبقي من
عودِ الثقاب والنار تلتهمه ببطءٍ حتى تفحم.. شردتُ قليلًا
قبل أن أفيق حين سعلت ولاء بحدةٍ بعدما تسلل بعضُ
الدخان إلى صدرها.. تحسستُ وجهها بأناملي فرأيتُ فيها
ما لم أره من قبل.. أطفأتُ السيجارة بعدما أنهيتُ نصفها
بالكاد..

نهضتُ من الفراشِ ونزلتُ على رُكبتي.. ألصقتُ أذني
بالأرضية.. صوتُ معولٍ يحفرُ ويكسرُ في الصخر..

تساءلت عن سرِّ تلك الأصوات الليلية.. أجبتُ نفسي
بأن هناك أمرًا خطيرًا يحدثُ في الأسفل..

كدتُ أن أستمر في سؤالِ نفسي لولا أن مرَّ بجوار
وجهي صرصارٌ كبيرٌ قبيحُ الشكل.. تحرّكت قرونُ استشعاره
نحوي، وقبل أن أتمكن من سحقه غاب بسرعةٍ داخل
أحد الشقوق..

نهضتُ من على الأرض وقد شعرتُ بصيرٍ يئن داخل ركبتي.. ذهبتُ إلى الباب وأنا أتمنى أن تكونَ راجية قد نسيت وضع القفل عليه، لكن محاولةً أولى وثانية وثالثة لفتحه جعلتني أتأكد أنها لم تنس.

حسنًا.. أنا اليوم لن أظل حبيسَ تلك الجدران.. الأيام الماضية كنتُ قد قضيتها في دراسة التفصيل المعماري للمنزل.. من حُسن الحظ أي فطنتُ إلى أن نافذة المطبخ تطل على منور السلم..

توجهتُ إلى المطبخ بخطى سريعة.. العفنُ والرطوبةُ التي التهمت الجدران كانا حاضرين هناك بشدة.. تحسستُ خطواتي هناك وتجنّبت الأواني المصنوعة من النحاس والألومنيوم حتى لا أصدر أي ضجيج..

كانت النافذة صغيرةً وتكفي لعبوري بالكاد.. أزحتُ كل ما حولها من كراكيبٍ ومهملاتٍ تم وضعها على حافتها.. خلعتُ الإطارَ الخشبي الذي يُحيط بها محاولاً توسيعَ المجال أمامي إلى أقصاه ثم تسلقت عليها.. حين أوشكتُ على العبور منها اكتشفت أنها أوسع مما تخيلت.. أو ربما أنا أنحف مما أعتقد..

عبرتُ إلى منور السلم ومنه أخذتُ أمشي فوق درجاته
في اتجاه الأسفل نحو مصدر الصوت..

كان السلم معتمًا وتحاشيتُ أن أشعلَ نورَه في مزيدٍ
من الحذر، واستعصتُ عن ذلك بنور كشاف تليفوني..
صحيح أنه كان ضعيفًا جدًّا لكنه كفل لي حدًّا معقولًا من
الإضاءة أميِّز بها الدرجات..

عبرتُ من أمام شقة طاهر.. سمعتُ صوت التلفاز يأتي
من داخلها وتحديدًا الصوت المميز لدبلجة المسلسلات
التركي..

أكملتُ طريقي ومع اقتربي من الدور الأول لمحت
صرصارًا أسود يجري بين قدميَّ.. أكاد أقسم أنه نفس
الصرصار الذي كان في الأعلى.. حاولتُ أن أهرسه بقدمي
لكن اللعين غاب من جديدٍ داخل أحد الشقوق..

في الأسفل كان كل شيء يغرقُ في الظلام الدَّامسِ، فقط
كان ضوءًا صغيرًا يتسللُ من أسفل باب غرفة نوم راجية..
تنصَّت محاولًا البحثَّ عن مصدر الصوت والذي
تلاشي منذ قليلٍ..

صبرتُ برهةً.. لا صوت.. لا حركة.. اللعنة.. هل كنتُ
أتخيَّل ذلك..

عاد الصوتُ من جديدٍ.. تتبَّعتُ مصدرَه.. قادي
إلى الكومودينو الأثري العملاق.. الغريب أنه لم يكن في
موضعه.. كانت قد تمَّت إزاحته جانبًا تاركًا آثار خدوشٍ
فوق السجادة.. تحت مكانه مباشرةً رأيتُ حفرةً في الأرض..
خلفها لمحتُ ممرًا طويلًا يخرجُ منه ضوءٌ خافتٌ ممتزجٌ
بغبارِ قَرْمِزِي اللون.

أغلقتُ نورَ هاتفي ونزلتُ إلى الأسفل عبر سلمٍ خشبي
متهالكٍ أوشك أن يتحطم تحت وطأةٍ ثقلي..

كان لوقعِ ملامسةِ قدمي الأرض صوتٌ مكتومٌ.. توقَّف
صوتُ الحفرِ وسمعتُ ارتطام شيءٍ معدنيٍّ بالأرض.. ثم
سكن كل شيء.. تسارعت أنفاسي رغماً عني وسمعتها
عاليةً مثل دقاتِ طبول.. مشيتُ إلى الأمام وأنا أحنِي
رأسي متجنبًا القوائم والعوارض الخشبية التي تم غرزها في
السقف وجوانب الممرِّ..

فجأةً.. أغشى وجهي نورٌ هائلٌ وقبل أن أنطقَ أو أرفعَ
يدي لحماية عيني، ارتطم شيءٌ ثقيلٌ بصدري، ثم طوَّحني
أرضًا وسقطتُ على وجهي فدخل الترابُ في حلقي وكتم
أنفاسي..

حاولتُ النهوضَ وأنا أطوِّحُ بقبضتي في كل الاتجاهات
وبعشوائيةٍ شديدةٍ محاولًا الدفاع عن نفسي، لكن سمعتُ

صرخة هائلة اهتزت لها جوانب الممر وحطمت أعصابي
ثم رأيت فأسًا تهوي باتجاه رأسي.

هل سمعتم من قبل عن قصة الفلاح والفأس.. إنها
قصة ممتعة للأطفال عن فلاح سقطت فأسه في البحر،
فإذا بعروس البحر تخرج له ومعها فأس من فضة وتساله
هل هذه فأسك لكنه يجيب بالنفي، ثم تغوص وتخرج
بفأس من ذهب وتساله من جديد فيجيب بالنفي من
جديد، وحين تخرج له بفأسه المصنوعة من الحديد
يأخذها، فتقوم عروس البحر بمكافأته على صدقه وأمانته،
وإهدائه الفأس المصنوعة من الفضة وكذلك المصنوعة
من الذهب.

لا أعلم لماذا تذكرت تلك الحكاية حين رأيت طاهر
وهو يمنح هتلر في اللحظة الأخيرة من تهشيم رأسي
بالفأس.

- قوم!

قالها طاهر وهو يُعاونني على النهوض.

- إنت بتعمل إيه؟

أخذ طاهر نفسًا عميقًا وتبادل النظر مع هتler الذي
راح ينظرُ لي بتحفُّزٍ شديدٍ، ثم أجابني:

- إنت شايف إيه!

- شايف حفر.

أخبرني أنه يبحثُ عن مقبرةٍ فرعونيةٍ، وأن تحت أساس
المنزل كنوزًا وآثارًا تكفي لكي تملأ متحفًا.

- عشان إيه؟

سألته، فضحك بصوتٍ مرتفعٍ وشاركه هتler الضحك..
قال بعد أن انتهى:

- الفلوس يا جوز أختي.. المصاري.. هو فيه غيرها.

ثم قصَّ لي عن الكثير من أبناء القرية الذين اغتنوا
بفعل الآثار وبيعها، ثم أنهى قصصه بقوله:

- فلوس ملهاش عدد يا جوز أختي.

- وإنت متأكد أن تحت البيت آثار؟

تناول من على الأرض قطعًا حمراء صغيرةً وناولها لي:

- ده اسمه (شقف).. علامات ودليل على وجود مقبرةٍ
هنا

تحسّست الشقف بيدي.. كان أملس وناعمًا أشبه
بالفخّار.. استطرّد:

- حاول تكسره!

حاولتُ أكسره لكنه كان صلبًا، على الرغم من رفته
الشديدة.. عاد يقول:

- مبيتكسرش.. الي عمله الفراغنة.. جدودنا.. واللي
موجود هنا هو ورثي ونصيبي منهم.. حلال ربنا.

طلب مني طاهر أن أشاركه ولي نصيبُ مما سوف
نجد.. في الحقيقة هو لم يكن يحتاجُ أن يطلب مني، لو
اصطبر قليلًا لكنّ توسلتُ له.. وهكذا قضيتُ معه بقية
الليل تعرّفت خلاله على طريقة الحفر ورصّ العوارض
الخشبية، ثم وفي الصباح تركته وصعدت..

لم تكد ولاء تراني حتى هبّت واقفةً منزعةً تسألني
عما حدث وأين كنتُ..

أخبرتها بكلّ شيء.. نعم كل شيء.. هي ستعلمُ الحقيقة
في النهاية ولا فائدة من الكذب عليها..

كعادتها رفضت.. اعترضت.. تزمّرت.. ثم وفي النهاية
رضختُ على مضٍ..

مرّ اليوم عادياً جداً وفي المساء تجهّزت للنزول إلى
طاهر الذي لم يقم بقفل الباب علينا..

فوجئتُ بولاء تسبقني إلى الأسفل باتجاه النفق وقد
ارتدت ترنج سوت وعقدت شَعرها على هيئة فيونكة
فبدت مثل مراهقةٍ في ثانوي.. حاولت أن أمنعها لكنها
كانت صعبة المراس وصممتُ أن تأتي معي.. رأيت أن من
الأسلم ألا أجادلها أكثر من هذا فاصطحبتها بعدما لكمتها
في كتفها بينما ركلتني في ساقِي..

في طريقنا رأينا راجية في المطبخ تُعد الشاي وهي
تُغني أغنيةً شعبيةً حزينةً باللهاجة الصعيدية لم أتبين منها
سوى حروفِ الشين والخاء.. حين لمحتني كَفّت عن الغناء
وحملت الصينية باتجاهي، ثم قالت لي:

- خد دول معاك وإنت نازل!

تناولتها منها بحذرٍ، بينما سحبت ولاء وطلبت منها
أن تبقى وتترك أمر الرجال للرجال.. ولاء وعدتها أن تكون
هذه هي المرة الأولى والأخيرة.. في تلك الأثناء جاءت

دلال وفي نيتها النزول أيضًا.. تطايرت الكلماتُ بين الثلاثة..
تسللت من بينهم بهدوءٍ..

جاء صدى صوت طاهر من الأسفل رنانًا:

- إيه اللي بيحصل فوق؟

التفتوا جميعًا نحوي فيما يُشبه (إلى أين أنت
ذاهب؟).. قلتُ وأنا أرفعُ صينية الشاي:

- كنت هنزل الشاي وأرجع.

سبقتني ولاء في النزول وكذلك دلال.. مما يبدو أن تلك
الأخيرة اعتادت النزول..

عندما صرْتُ في النفق رأيتُ طاهرَ يدخلُ في حديثٍ
مُحتدمٍ وغازبٍ مع ولاء، بينما انزوى هتلى في أحد الأركان
راسمًا على محيَّاه الخجل والكسوف المصطنع، لكنه كان
يختلسُ النظر على مؤخرة دلال بين الحين والآخر.. ناولته
كوب شاي وأشرت بإصبعي على عيني ثم عليه، فيما
يعني أنني أراقبك وأرى نظراتك الوقحة.. ابتسم ثم نفخ
على حافة الكوب ورشف رشفةً طويلةً:

- حلو قوي الشاي.

لم أرد عليه وأشرت له بأن ينتحي بنفسه بعيدًا،
فاستجاب على مهلٍ.. في تلك الأثناء كانت ولاء وطاهر قد

انتهيا من شجارهما القصير وهدأت الأجواء كثيراً خاصة بعد أن تدخّلت دلال.. قلت لولاء وأنا أساعدها على الصعود لاعتلاء السلم:

- قلت لك من الأول مفيش داعي..

ثم طمأنتها أن الأمور سوف تكون على ما يُرام.. نظرتُ لي فيما يُشبهه: (أيها الأحمق أنت دائماً تُفسد كل شيء).. عدت بعد ذلك لاستكمال الحفر وتجنّبت الحديث حول ما دار الآن..

استمرّ حفرنا عدة ليالٍ.. كان الحفر شاقاً وليس بالهين كما توقعْتُ.. هناك أجواء خانقةٌ وأكوامٌ من التراب والحجارة لا بد من الصعود بها ثم حملها للخارج وإفراغها..

بمرور الأيام انطفأت حماستي أسرع مما كنتُ أتوقع، وكذلك أرهقت جسدياً على نحوٍ بالغٍ..

فكرت ثم قررت أن أنسحب من هذا الموضوع.. وفي اليوم الذي هممتُ فيه أن أخبر طاهر، أوقفنتي صرخة هتلى.. هرعنا مع طاهر نحوه ونحن لا نعلم علام صرخ.. في البداية ظننتُ أنه ربما يكون قد أُصيبَ لكنني رأيتُه يقفُ يرتعشُ وتحت قدميه سقط معوله الحديدي..

بجوار المِعولِ لمحتُ قطعةً حجريَّةً تبرز من تحت
الأرض.. مسحتُ بيدي التراب من فوقها.. كانت أشبه
بباب مقبرةٍ فرعونيةٍ.. ابتسم هتلى في ظفرٍ ولمعت عينا
طاهر..

أمسكتُ المِعولَ وبكلِّ قوتي ضربتُ بابَ المقبرةِ
فخرجت منه نارٌ.

الفصل الرابع

عَبثًا حاولنا أن نكسرَ بابَ المقبرةِ أو حتى نُحركه.. كان صامدًا في وجوهنا ومتحديًا بشكلٍ لا يُصدق..

طلع الصباح علينا دون أن نشعرَ به.. جاءنا صوتٌ راجية من الأعلى ليُنَبِّهنا بذلك.. كان من المستحيل أن نستمرَّ فيما نفعل خوفًا من أن يشعرَ الناسُ بنا.. فكَّرتُ أن نخرجَ لنستريحَ، ثم نعود في المساء ونحاول من جديدٍ.. كان هتلر رافضًا تمامًا للفكرة وأراد أن ينامَ بجوار المقبرة لولا أن نهره طاهر بشدةٍ وكاد أن يتعاركَ معه..

مرَّ النهارُ طويلًا وأنا في انتظار قدوم المساء للهبوط إلى المقبرة من جديدٍ.. على وقت العصاري جاء هتلر مثل حيوانٍ عابسٍ.. لم يتحمل كل هذا الوقت والانتظار..

جلسنا نحن الثلاثة وقضينا الوقت المتبقي في الحديث
عن كيفية بيع الآثار.. يا للروعة سوف أصبح مليونيراً
بعد لحظاتٍ..

- هشتري أرض الحاج (عبادة)؟

قالها هتلر وهو يسترخي في مجلسه.. لا أعرفُ من هو
الحاج عبادة لكن على ما يبدو أنه شخصٌ يمتلكُ أرضاً
ويبدو أيضاً أنه يعرضها للبيع.. احتج طاهر:

- لا.. اتقل.. الفلوس بتاعتك متطلعش مرة واحدة
عشان العين..

ضحك هتلر بضجرٍ:

- متخفش.. الناس كلها دلوقتي اتعمت..

سألتُ بهدوءٍ، ولكن بلهفةٍ شديدةٍ:

- تفتكروا نصيب كل واحد كام؟

أجاب طاهر:

- ده رزق وكرم من عند ربنا.. وربك لما بيكرم بيكون
من غير حساب..

لم تكد الشمس تغطس قليلاً حتى هرعنا ونزلنا.. وأمام
مكان المقبرة توقف ثلاثتنا.. فركت عيني غير مصدق لما

أرى.. تلفت طاهر يمينا ويسارًا مثل شخصٍ ضلَّ الطريق..
مدَّ هتلر يده وقبض على حفنةٍ من الترابِ وراح ينظرُ
لها بذهولٍ وهي تتسللُ من بين أصابعه..

المقبرةُ لم تكن موجودةً..

اختفت.

لم أجد تفسيرًا منطقيًا لاختفاء المقبرة.. قال هتلر بنبرةٍ
غريبةٍ:

- الجن سحبوا المقبرة..

قال طاهر بمرارةٍ:

- كان لازم حدّ فينا يبات جنبها..

سألته وأنا أتابعه وهو يغدو في المكان ذهابًا وإيابًا:

- طيب والحل؟

ردَّ هتلر بدلًا منه:

- مفيش قدامنا غير حل واحد..

ثم اقترح علينا أن نذهب للشيخ السيناوي فهو
الوحيدُ القادرُ على إرجاع المقبرة وفتحها.. لم أكن أعلم

مَن هو الشيخ السيناوي.. طاهر أخبرني أنه شيخ سُفلي
له كرامات وعلامات مع الجن والقرين..

بالنسبة لي لا أصدِّق في كلام السحر والشعوذة.. ربما
تكون محاولتنا لفتح باب المقبرة أدت إلى زحزحتها قليلاً،
وبالتالي تحركت الرمال من حولها فغاصت.. أخبرتهم
بهذا فاستقبلوه بتهمٍ شديدٍ.. رمى لي هتلر المعول تحت
قدمي، وقال:

- لو إنت مصدِّق كلامك احفر!

حركت معصمي قليلاً وأمسكت المعول..

نعم سوف أحفر بلا توقّفٍ..

لكن ليس اليوم..

ألقيتُ المعولَ وأخبرتهم أنني معهم حتى النهاية.. ثم
أكملت:

- إنتوا متأكدين من موضوع الشيخ السيناوي؟

- مليون امليه..

قالها هتلر بنبرة الشخص الذي لا يُخطئ أبداً ثم
أخبرنا أنه سيذهبُ للسيناوي لتمهيد الموضوع أولاً وبعدها
سوف يتصل بنا..

وفي اليوم التالي حين اقتربت الساعة من السادسة
طلب مني طاهر أن آتي معه لأمرٍ مهمٍ..
في الخارج كانت الشمسُ قد أصبحت شاحبةً وأوشكت
على الغروب

حين أخبرني أن هتلى قد اتصل به وأنه ينتظرنا عند
السيناوي، أخبرني كذلك أن السيناوي يسكن على مسافة
ساعة بالسيارة..

أخرج زنوبة وطلب مني الركوب على الرغم من
إلحاحي عليه بأن نركبَ سيارتي..

في الطريق وعلى غير العادة اكتفى بالقيادة في صمتٍ..
وصلنا إلى نهاية القرية حيث اختفت الزروع الخضراء
وحلَّت مكانها تلالٌ من الرمل الأصفر..

عرجنا إلى طريقيّ جانبي غير ممهدٍ يتسع بالكاد لمرور
السيارة.. وأخيراً توقفنا أمام منزلٍ تخرجُ منه الظلال على
نحوٍ غريبٍ.. جدًّا.

طرق طاهر الباب طرقاً خفيفةً، وانتظر..

لحظاتٌ وفُتِحَ البابُ وطلَّ منه ولدٌ صغيرٌ شديدُ
النحول، يرتدي جلباباً أبيض قصيراً يصلُّ بالكاد إلى عقبيه..
رَحَّبَ بنا بصوتٍ مبحوحٍ ناتجٍ ربما عن إصابته بمرضٍ في
الأحبال الصوتية، ثم قادنا إلى صالةٍ واسعةٍ وجدنا فيها
هتلر يجلسُ يتابعُ مباراةً مسجلةً في كرة القدم على
شاشةٍ تلفازٍ قديمٍ أبيض وأسود..

ابتسم هتلر ابتساماً عريضةً كشفت عن صفٍّ من
الأسنان "المنخورة" تتوسطها سنَّةٌ ذهبيةٌ لامعةٌ وتبادل مع
طاهر حديثاً سريعاً، بعدها أشار إلى كرسي عريضٍ وطلب
مني أن أنتظر، ثم دخل كلاهما إلى غرفةٍ لها بابٌ داكنٌ
سميكٌ وتعلوها لوحةٌ مصنوعةٌ من ورق البردي.. سمعتُ
بعد ذلك صوتاً أجشَّ يُرَحِّبُ بطاهر بعدها انقطعت
الأصوات خلف الباب الذي أوصد.. لم أستطع الجلوس..
درتُ في أرجاء الصالة.. توقفتُ في مواجهةٍ مرآةٍ كبيرةٍ أنظر
من خلالها إلى الجدران وإلى نفسي وأفكر..

قطع تفكيري صوتٌ اهتزاز زجاجي وخطوات بطيئة..
جاءني الولدُ يحمل صينية عليها زجاجة ماء وكوب ينسون
تتصاعد منه أبخرةٌ خفيفةٌ.. وضع أمامي الصينية وسألني
إذا كنتُ أرغب في شيء آخر، شكرته فذهب وجلس على

الأرض بجوار الباب في انتظار ضيفٍ جديدٍ.. سألته عن اسمه فأجاب:

- إكرام.

تعجبت من الاسم.. عدتُ أسأله:

- أنت مسيحي؟

ابتسم ابتسامَةً شاحبةً، وكأنه كان يتوقع هذا السؤال ثم

أجاب:

- لا.. مسلم.

ثم أخبرني أن والده أراد أن يُسميه أكرم لكن كاتب الوحدة الصحية أخطأ في كتابة الاسم وأضاف حرف الألف ولم يتم اكتشاف الخطأ إلا بعد سنوات نظراً لكون الأب والأم لا يستطيعان القراءة.

انتهى بعد ذلك كلامي مع إكرام والذي راح يُحذق في

السقف مثل المدمنين ويتمتم بموَالٍ حزينٍ..

مرَّ عليَّ الوقتُ بطيئًا كالسلحفاة وأصبت بالملل وبرغبةٍ في قتل إكرام حتى يتوقف عن الغناء.. نهضتُ من مكاني وتوجَّهت حيث دخل هتler وطاهر ثم طرقتُ الباب:

- طاهر..

ناديتُ.. أفاق إكرام من إدمانه وأشار لي بذعرٍ أن أعودَ
حيث كنتُ.. تصنَّعت الغباء وطرقت الباب مرةً أخرى
وأنا أشير له بعلامة الـ ok.. خرج طاهر والعرق يتصبَّب
على جبينه.. قلتُ:

- اتاخرت قوي..

- معلش.. تعال ادخل!

ثم أفسح لي مجالاً بجسده فدخلتُ.. مشيتُ فوق
سجادةٍ اختفت ألوانها بفعل الزمن وكثرة الاستخدام..
في الداخل كدتُ أن أختنق من دخان البخور فسعلتُ
بشدةٍ قبل أن أخرج منديلاً وأضعه أمام أنفي.. درت
بعيني سريعاً.. كانت الإضاءةُ تعتمدُ على الشموع
الكبيرة فأعطت رهبة للمكان.. الجدران اكتست بطبقةٍ
قائمةٍ.. السقف كان يبدو مثل السماء وقت العاصفة.. وفي
المنتصف شاهدته جالساً..

رفع وجهه نحوي وابتسم.. الشيخ السيناوي.. كان
متوسط القامة لكنه يبدو طويلاً نظراً لنحافته الشديدة،
حادّ الملامح، له أنفٌ معقوفٌ كالمنقار يجذبُ النظر وعينٌ
صفراء لامعة.

أخبرنا السيناوي أن المقبرة يحرسها ملكٌ من ملوك
الجان ومعه قبيلة كاملة من الخدم والمساخيط..

أردت أن أسأله.. ولماذا كل هذا الحشد، لكنه عاد يقول
وكأنه سمعني:

- صاحب المقبرة كان من كهنة الفرعون..

ثم أخبرنا أنه لإعادة المقبرة نحتاجُ إلى تحضير مَلِكِ
الجن على بدنٍ واحدٍ منا نحن الثلاثة.. طبعًا أنا رفضتُ
الفكرة من الأساسِ واستنكرتُها.. هتلى التزم الصمت وأجاد
اصطناع دور العبيط المُغفل.. وهكذا تسلطت وجوهنا
ونظراتنا على طاهر الذي أعلن عن استعداده..

اتفقنا بعد ذلك مع السيناوي على بضع أشياء كان
أولها نصيئه في الغنيمة وآخرها أن نحضر ٥ جرامات من
الزئبق الأحمر^(١).

فجأةً سمعنا صرخةً ممزقةً جاءت من غرفةٍ مجاورةٍ
وبدت كصرخةٍ شخصٍ يُعاني أبشع الألم اتبعها المزيد من
الصرخات ثم العويل واللطم..

- إيه الصوت ده؟

ابتسم السيناوي:

(١) الزئبق الأحمر: مادة يعتقد أنها خرافية لا وجود لها، ذاع صيتها منذ
الثمانينيات وما زال الكثيرون يؤمنون بوجودها رغم عدم تحديد ماهيتها
أو تركيبها على وجه التحديد ويقال إنها تستخدم لتحضير الجن

- سيب اللي في الغيب لعالم الغيب..
قالها ثم مدَّ يده للأمام وأغمض عينيه:

- بخ.. بخ!

لم أدر هل قالها استطراداً لكلامه أم أنه قالها لإرهاي..
على كلِّ الأحوال كانت صيحةً مُفزعَةً جعلت شعر رأسي
ينتصبُ واقفًا.

راح بعد ذلك يقصُّ علينا حكاياتٍ عن كرامته وأفعاله
الخارقة.. شعرتُ أنه يُحاول أن يُبهرنا.. بلا شك هو مجرد
نصاب.. أنا واثقٌ أنه لا يُوجد وراء الجن الذي يحكيه..
لكن ماذا عن ذلك الشبح الذي خرج من الأرض ثم
غاص داخل الحائط في ملح البصر.

أعطانا السينائي عنوان وهاتف أحد تجار الزئبق
الأحمر.. طاهر اتصل به واتفق على المبلغ ومكان وميعاد
التسليم..

سافرت معه إلى بلدٍ يقع في واحدةٍ من محافظات
الوجه البحري.. كان لقاءنا مع البائع في أحد الفنادق
القديمة التي لا يذهبُ لها غير الشحاذين والمجرمين.. لن

أخوضَ في تفاصيل كثيرةٍ لكن يكفي أن أخبركم أننا عدنا
ومعنا ٥ جرامات كاملة من الزئبق الأحمر..

قام طاهر بالاتصال بالسيناوي الذي اتفق معه أن
نلتقي في مقبرة التل الأحمر وقت منتصف الليل.. وهكذا
أعدنا العدة وانتظرنا.. ثم حين أصبح الظلام حالگًا سرنا
عبر الممرّ الوعر الذي يقودُ إلى قمة التل حيث المكان
المنشود..

شعرتُ بالرهبة حين رأيتُ عشرات المقابر المتناثرة
هنا وهناك.. أخبرني طاهر أن هذا المكان كان لفترةٍ قريبةٍ
مدفنًا لأهل القرية قبل أن تضمه وزارةُ الآثار وتمنع الدفن
فيه.

بعد أن عبرنا المقابر بمسافةٍ قصيرةٍ سمعتُ جلبةً، ظهر
على أثرها الشيخ (السنائي) من وراء كتلةٍ حجريةٍ كان
يجلسُ خلفها.. تقدم نحونا وقال بنبرةٍ تنم عن القلق:

- اتأخرتوا!

ودون أن ينتظرَ منا ردًّا التفت إلى طاهر واستطردَ:

- جبت الزئبق الأحمر؟

ناوله طاهر زجاجة الزئبق ثم أخرج من جيبه خصلةً
شعر بُنية لم يُخبرني عنها.. كدتُ أن أسأله عنها لولا أن

لمَح السؤال في عينيَّ فأشار لي بأن أصمتَ وأن هذا ليس
وقته..

وضع السيناوي طشتًا نحاسيًا ملاء بالدم وطلب من
طاهر أن يجلسَ به.. لمحتُ التردد والخوفَ في عيني هذا
الأخير.. لا أنكر أنني أيضًا كنتُ أشعر بالخوف.

جلس طاهر بحذرٍ، بينما أخرج السيناوي جمجمةً
ضخمةً وخطَّ فوقها طلسمًا ووضعها فوق صدر طاهر..
ثم وبأعلى صوته راح يُكرر:

- بحق القلم واللوح.. بحق علشاقيش، إسماطون،
لوطياف، هلولياه.. أجبيوا يا خدّام هذه الأسماء..
أجب يا ناصور أنت وأعوانك من الخدم والعفاريث..
أسألك أن تُسخر لي واحدًا من خدّام اسمك يخدمني
فيما أريد.

ثم شهق شهقتين وفتح فم طاهر قسرًا وحشر داخله
زجاجة الزئبق الأحمر. سمعتُ بعدها صوت طنينٍ يُشبه
طنين النحل وإن كان أكثر قوةً وأشد رهبةً بالتزامن مع
أنفاسٍ كثيرةٍ وخطى أقدامٍ غير مرئية.. ثوانٍ، ثم سمعتُ
مَن يقول:

- لقد أمرتَ خدمنا بالحضور فحضرنا، ولك منا السمع
والطاعة

تلّفت حولي.. لا يوجد غيرنا.. لمعت عين السيناوي..
طاهر يرتعدُ وقد أوشك على البكاء..

طرقتُ عقلي كلمةً ما.. لا أعلمُ إن كانت كلمةً أم نداءً
أم اسمًا.. فقط كانت تتكرر مرارًا وتكرارًا:

- (سوميا)

ارتحلت عيني نحو طاهر الذي أصدر حشجةً مخيفةً
وشخصت عيناه إلى السماء، بينما برزت عروقُ عنقه
الزرقاء على نحوٍ بشعٍ..

شممتُ رائحةً كبريت.. أحسستُ بشيءٍ شيرٍ قد
حضر.. انغلقت رئتاي ولم أعد قادرًا على التنفس..
انسحبت الدماء من جسدي وتجمعت في رأسي حتى كاد
أن ينفجر.. سقطتُ على ركبتيّ وقد ضربتني غشاوةٌ..
لمحت رأس طاهر يسقط فوق صدره ثم هويتُ بجيني
فوق الأرض وابتلعتُ كل غبار الكون.

شهقتُ فجأةً..

فتحت عينيّ مذعورًا.. رأيت الشمسَ مُعلقةً على
يميني صفراءَ زاهية.. تَلَفَّت من حولي لأجدَ نفسي داخل
سيارة طاهر، بينما هو يقفُ بعيدًا يُدخن سيجارةً وقد
راحت رياحُ الصباح الباردة تُحرِّكُ قميصَه..

خرجتُ من السيارة باتجاه طاهر.. كان يبدو بخيرٍ
وبأتم حالٍ.. التفتَ نحوي حين استشعرَ اقترابي منه:

- فقت أخيرًا يا جوز أختي!

- إيه اللي حصلتي؟

- شكلك مستحملتش إمبراح.. المهم إنت حاسس
بحاجة؟

قلتُ غير مستوعبٍ:

- بصراحة مش عارف.. بس أنا دلوقتي كويس..

ثم سألتُه:

- دلوقتي إنت بقى عليك جنّ.. مضبوط؟

ابتسم ثم ناولني سيجارةً..

الفصلُ الخامسُ

اتفقنا مع السيناوي أن يأتينا مساءً..

كانت الفكرة أن يقومَ بتحضير الجن الموجود على
ظاهر من أجل سحب المقبرة.. من حُسن الحظ أننا
كتمنا خبر الشيخ السيناوي وما حوله عن نساء الدار..
تناولنا الغداء في المنزل وحين اقتربَ العصر جاءت
دلال ترتدي ملابس الخروج.. علمت أنها في طريقها لزيارة
أسرتها القاطنة في الطرف الآخر من القرية..
تبادلت دلال مع راجية بعض المناوشات الروتينية ثم
انصرفت إلى حال سبيلها..

بعد دقائق سمعنا ضجةً وأصواتًا مُناديةً تأتي من الخارج.. كانت جلبهً كبيرةً تدلُّ على حدوث مصيبةٍ.. أحسستُ بانقباضةٍ في قلبي وبنديرٍ شؤمٍ..

هرعنا جميعًا وبمجرد أن فتح طاهر الباب نزلت الساعة.. كانت دلال مضرجةً في دمائها وقد صدمتها سيارة نصف نقل وألقتها على آخر الشارع..

لن أطيّل في ذكر ما حدث، لن أصف صراخ طاهر أو عويل راجية.. سأذكر فقط أن الخبر انتشر سريعًا في القرية انتشار النار في الهشيم.. كل شيء جرى بعد ذلك سريعًا.. أتت الشرطة تسبقها سيارة الإسعاف، ثم تحقيق سريع وتم اقتياد السائق إلى القسم..

توجّهنا إلى المستشفى حيث أنهينا الإجراءات واستلمنا الجثة بعد أن تم تغسيلها وتكفينها بالداخل.. في هذه الأثناء كانت الشمس قد غربت وبدأ الظلام يغزو القرية ففوجئت بأن الدفن سوف يتم غدًا.. كان من ضمن عاداتهم أن يتم الدفن من طلوع الشمس وحتى غروبها. أحضرنا الجثمان ووضعناه داخل المنزل وبقينا جميعًا مُستيقظين..

مرّ الليل بطيئًا ثقيلًا كأصعب ما يكون.. خلال ذلك حاولتُ أن أختلي بولاء إلا أنها كانت ملتصقةً بوالدتها

فلم أجد بدًّا من الالتصاق بطاهر ومحاولة أن أكون زوج الأخت الجيد.

أقى الصباح وانتهينا من صلاة الجنازة ثم الدفن.. في نهاية اليوم كنتُ أجلسُ بجوار طاهر داخل صوان العزاء.. استمرَّ العزاء خمسة أيام متتالية، أثناء ذلك كانت تأتينا صواني الأكل والطعام من المنازل المجاورة..

الشيخ السيناوي زارنا في اليوم الرابع.. اتخذ مجلسًا بعيدًا وظل يرقبُ طاهر من أسفل عينيه.. بعد أن انتهى من أداء واجب العزاء أخبرني أنه يريد أن يُحدثني في موضوعٍ ما.. لحقت به خارج الصوان واتخذنا ركنًا بعيدًا.. بادلني التعازي ثم قال باهتمام:

- الجن يبطلع على طاهر؟

لم أكن أملك الإجابة.. لم أكن حتى قد فكَّرت في هذا.. أدت سؤاله في رأسي عدة مراتٍ، ثم أجبتُ:

- لا..

هزَّ رأسه ثم أولاني ظهره وتركني دون كلمةٍ أخرى.. استشعرتُ الخطر.. استبقته عدة خطواتٍ ثم واجهته:

- خير.. هو فيه حاجة خطر؟

ابتسم، ثم قال وكأنه يبصق في وجهي:

- لا..

لم أسترح لردّه.. لكن في النهاية تركته يذهب وأنا أتابعه ببصري قبل أن أسمع طاهر يُنادي عليّ..

توجّهت لطاهر الذي كان يجلس بمفرده.. تفرّست في ملامح وجهه فلاحظ ما أفعل:

- السيناوي كان عاوز منك إيه؟

كذبت عليه:

- كان بيسألني إذا كنت محتاج خدمة.. أهو كلام ابن عم حديث.. في الفاضي يعني..

استكان في مقعده، ولم يُعاود سؤاله..

في نهاية اليوم الخامس وبعد أن تم فضّ صوان العزاء فوجئت بطاهر يسير بمفرده..

تابعته ببصري وهو يدور من خلف المنزل ثم يسير كالشبح داخل الممرّ الصاعد إلى التل الأحمر.. أوجفت في نفسي خيفةً وفكرت أن أناديه قبل أن ألاحظ ظلين يزحفان خلفه.. أحد الظلين كان يملك قرناً!

بعد مرور الأربعين جاءني هتلر وأعلن أنه لم يعد يطيق الصبر..

ذهبتُ إلى طاهر وسألته إن كانت حالته النفسية تسمح له بأن ننزل للمقبرة من جديد.. لم يُمانع وطلب مني أن أتصل بالسيناوي حتى يحضرَ فلا فائدة من الحزن أو ضرر من جني المال..

اتصلت على السيناوي وفي المساء كان قد أتى ومعه إكرام يحمل له عدة التحضير وكل ما قد يلزم..

نزلنا إلى مكان المقبرة الذي اكتسى بطبقةٍ غريبةٍ من العفونة.. جرى الأمرُ بعد ذلك سريعًا.. بل أسرع مما قد توقعْتُ أو تخيلتُ.. قرأ السيناوي بضعة طلاسم فوق رأس طاهر ثم.. لا شيء.. حقيقي لا شيء..

وأخيرًا جمع السيناوي عدته بسرعةٍ وسط دهشتنا وكأنه كان يتوقع ذلك وأخبرنا أن الجن لم يعد موجودًا داخل طاهر، ثم غادر تاركًا إيانا نضرب أخماسًا في أسداس..

ثار هتلر، وسبَّ ولعن كثيرًا، ثم أعلن أنه سيُحضر شيخًا آخر أكثر سحرًا وعلماً..

طاهر، وكأنه لم يحدث شيء أغلق النفق وصعد إلى غرفته.. حين ذهب خلفه وجدته يقف أمام صورة زوجته.. ظل ينظر إليها قرابة ربع الساعة.. اقتربت منه بصمتٍ.. سألته:

- مالك؟

نظر لي، ثم جذبني من يدي في حركةٍ غريبةٍ.. اتجه بي نحو مكانٍ منزوٍ ليتأكد ألا يسمعنا أحد:

- اسمعني يا مجدي.. أنا حاسس إن الجن اللي جوايا عاوز يطلع

شعرتُ بقشعريرةٍ تغزو أطرافي.. قلتُ له:

- إنت مبقاش عليك جن.. ناسي كلام الشيخ!

بقي صامتًا، ثم أجاب بكلماتٍ قليلة:

- ممكن يكون عندك حق..

على مائدة العشاء جلس طاهر جامد الملامح.. لم يضع شيئًا في فمهٍ واكتفى بتحديجي بنظراتٍ باردةٍ.. حاولتُ أن أفتح معه حديثًا لكنه أبقى الصمت..

تبادلْتُ مع ولاءِ نظراتٍ متسائلةً نقلتها هي إلى راجية
التي سألته:

- مالك يا طاهر؟

ثم وضعت يدها على كتفه برفقٍ.. أدار لها رأسه
بطيءٍ.. وبحركةٍ آليّةٍ مدَّ يده ثم رفع يدها عن كتفه
ونفض..

تابعته بكثيرٍ من القلق وهو يسيرُ.. ناديتُ عليه:

- رايح فين؟

التفتَ نحوي، ثم أجاب كالضائع:

- أناام.

لم يكن هذا ميعادِ نومهِ الطبيعي.. قلتُ:

- طيب ما تيجي نخرج شوية!

- أناام..

ردّدها من جديدٍ وكأنه لم يسمعني، ثم صعد السلام
باتجاه غرفته..

كانت أصوات خطواته تصلُ لنا واضحةً ثم انتهت
فجأةً وران بعدها صمتٌ.. رهيبٌ.

اليوم التالي وتحديداً قرب صلاة الظهر أخبرتني ولاء أن طاهر لم يستيقظ بعد.. قلتُ:

- معلش ممكن بس تعبان..

لكنها إجابةٌ لم تُقنعني أنا نفسي، وقبل أن ترد ولاء جاءت راجية مُرتعشة الوجه.. أدركت أن هناك مصيبةً وبالتأكيد محورها طاهر أو أنا.. قالت إنها حاولت إيقاظ طاهر عدة مراتٍ، لكنه لا يستيقظ.. كادت أن تفلت مني كلمةً:

- مات..؟

لكني كتمتها في حلقي في آخر لحظةٍ.

توجّهنا مُسرعين إلى غرفة نوم طاهر.. حسبتُ عدد ساعاتِ نومه داخل عقلي.. ٢٠ ساعة بالتمام والكمال.. مدة طويلة.

كان طاهر راقداً فوق سريرهِ متخشباً تماماً على ظهرهِ وقد فُردت ساقاه ورُفَع ذراعه إلى الأعلى باتجاه السقف وكأنه يُحاول إمساك شيءٍ ما..

اقتربت بأذني من صدره.. سمعتُ أنفاسه تدخل وتخرج.. طبطبتُ على وجههِ برفقٍ:

- طاهر.. اصحى!

كان وجهه باردًا كقطعةٍ من الثلج..

- ما له؟

قالتها ولاء..

- بصراحةٍ مش عارف.. بس احتمال تكون غيبوبة..

ثم التفتُ إلى راجية مُتسائلًا:

- هو بيشتكي من مرض.. سُكر مثلاً؟

أجابت بالنفي.. في الحقيقة كنتُ أعلم الإجابة مسبقًا..

طاهر صحته كالبغل إذا شئنا الدقة.. رحّتْ أهزه بقوة..

وبلا مُقدماتٍ فتح عينيه وصرخ.

جلستُ أراقبُ طاهر طوال اليوم..

بعد ما حدث أمس لم أعد مطمئنًا له.. الغريب أنني

كنتُ كلما اقتربتُ منه أشعرُ بثقلٍ في جسدي وتنميلةٍ

غريبة..

الجميعُ بمن فيهم أنا نعلمُ أن هناك شيئًا غير طبيعي

في طاهر، لكننا نرفضُ الحديثَ حوله..

من جديدٍ وحول طعام العشاء جلسنا.. كان يأكلُ
بشهيةٍ مفتوحةٍ عكس السابق.. قلتُ له:

- عامل إليه النهارده؟

شرب قليلاً من الماء خلف لقمةٍ كبيرةٍ، وأجاب:

- تمام.. كويس قوي..

ثم واصل الأكل.. تناقشنا جميعاً عمّا جرى له أمس..
كان الاقتراحُ الأنسبُ أن نذهب به لطبيبٍ مُختص.. طبعاً
رفض وقال إنه كان مُتعباً ولا يوجد شيء يستوجب القلق،
ثم أنهى المناقشة بأن نهض وأخبرنا أنه سوف يذهبُ
لينام.

تبادلْتُ مع ولاء وراجية نظراتٍ قلقةً ثم أخبرته أننا
لن نتحدث في موضوع الطبيبِ وطلبت منه أن يسهرَ
معنا لكنه رفض..

عدتُ أطارده وأطلب منه أن نذهب للجلوس على
قهوة سنية.. وافق أخيراً بعد إلحاحٍ من ولاء وراجية..
وصلنا إلى قهوة سنية التي ارتعشت أنوارها ربما بفعل
ضعف التيار الكهربائي أو لشدة تيار الهواء البارد في تلك
الليلة..

استقبلت سنية طاهر بحفاوةٍ وعزته في زوجته قبل أن
تتركنا نجلس في ركنٍ بعيدٍ بعض الشيء عن الهواء..

أتى سنفور سريعًا ونظف الطاولة التي نجلس عليها
بعد أن حيانا بحرارة، ثم طلبت منه الشاي المعتاد.. ذهب
ثم عاد كالبرق ووضع أمامنا براد شاي أزرق تتصاعد منه
الأبخرة الرمادية.. صبت لطاهر الشاي وأنا أقول:

- سيها لله..

كان متجهماً.. رفع بصره الذابل نحوي وقال:

- كله على الله..

ثم تناول كوب الشاي وأدناه من فمه ونفخ فيه
ليطرد حرارته.. رشف عدة رشقاتٍ متتابعةً قبل أن
يسألني:

- مبتشفش الشيخ السيناوي؟

- من آخر يوم كان معنا مشفتوش.. عاوزه في حاجة..

- السيناوي مش مضبوط.. آخر مرة كان مش على
طبيعته..

- لو تحب أنا ممكن أروح له!

- لا.. خليك.. لما أفوق أنا هروح له بنفسي..

حاولتُ أن أغيّر الموضوع فعرضت عليه لعب الدومينو..
وافق على مضضٍ.. قضينا بقية الوقت في اللعب حتى
انتصف الليل فلم يبق في القهوة غيرنا..
استشعرتُ تغييراً في حالة طاهر وأنه قد عاد إلى
طبيعته..

عُدنا للمنزل الذي كان يغرقُ في سكونٍ عجيبٍ.. تركتُ
طاهر أمام باب غرفته.. سعدتُ إلى غرفتي ووجدتُ ولاء
تختفي تحت البطانية وتغطُّ في نوم عميقٍ.. بعد ساعةٍ
تقريباً سمعتُ صوت ارتطامٍ قوي يأتي من غرفته.. لم أكن
قد نمتُ بعد لذا نهضت من فوق السرير.. شعرتُ بي ولاء
فقالَت والنعاس يقتلها:

- رايح فين يا مجدي؟

- عطشان.. هروح أجيب إزازه ميه.

دثرت نفسها بالغطاء، وأكملت نومها..

نزلتُ السلام باتجاه غرفة طاهر.. وقفتُ أمام بابها
أصغي.. أسمعُ همساً وهمهماتٍ غريبةً.. فتحتُ الباب
برفقٍ ودخلتُ.. في الداخل كان الظلام يبتلعُ كل شيء..
سمعتُ نفس طاهر وهو يعلو ويهبط.. أشعلتُ كشاف
الموبايل متلمساً بعض النور.. ميّزت جسد طاهر فوق

سريره مُتصلبًا مثل الأمس.. رأيتُ للحظةٍ أن هناك ظلًّا
انسحب فجأةً داخل جسده.. حاولتُ إقناع نفسي بأنه
وهمٌ.. دنوتُ من طاهر.. سلطت الضوء على وجهه..
أجفلت في مكاني وكدت أن أصرخ.. كان فمه مفتوحًا عن
آخره وعيناه تنظران لي.. مثل شيطان.

الفصلُ السَّادِسُ

طارت بومةٌ أمام وجهي حين فتحتُ النافذة.. صاحت
ولاء بضيقٍ وهي تضعُ وسادةً على وجهها:

- - إيه اللي مصحِّيك بدري كدا؟

لم أخبرها أنني لم أنم منذ أن نزلت لطاهر.. لم أخبرها
كذلك عن الوضع المُخيفِ الذي رأيته فيه..

تركت النافذةً مفتوحةً وهبطت إلى الأسفل.. رأيتُ
راجية تستعدُّ للوضوء وقد ظهر العجزُ عليها.. دار بيني
وبينها حديثٌ سريعٌ انتهى بأن خرجتُ متوجهًا لأداء
صلاة الفجر..

بالقرب من مدخل البيت رأيتُ شيئاً لم أتبين ماهيته جيداً.. حين اقتربت منه أدركتُ أنه غرابٌ ميّت.. كانت رقبته مُتبيسةً تماماً والتوتُ بجانب جناحه الأيسر.. أمسكتُ به من ذيله ورميته بعيداً..

في داخل المسجد ألقىتُ السلام على المُصلين الجالسين في انتظار إقامة الصلاة فردّوا التحية بأصواتٍ لا تزال تحمل آثار النوم..

بعد أن انتهت الصلاة استندتُ بظهري على سلم المنبر الخشبي وأسبلت جفنيّ.. كنتُ أحتاج إلى الشعور بالأمن والسكينة..

- هنقفل الجامع يا أستاذ!

فتحتُ عينيّ على صوت عامل المسجد وهو يهزُّ كتفي برفقٍ.. اللعنة على هذا الزمن الذي تُفتح وتُغلق فيه المساجدُ بميعاد.. نظرتُ حولي فافتشفت أنني الوحيدُ الباقي.. تنهّدت ثم اعتذرت له وغادرت..

حين عُدت سمعتُ صوت طاهر وراجية قادمين من المطبخ.. اختلستُ نظرةً سريعةً فوجدتُ طاهر يُساعد راجية في إعداد الإفطار ويتحركُ بمرحٍ وبأريحيةٍ كبيرةٍ..

مضى اليوم على أحسن ما يُرام.. وحين حلَّ الليل
صعدتُ لأنام بينما سهرت ولاء تُتابع التلفاز..

أرختُ جسدي على السرير وتركته يبتلعني.. غرقتُ في
التفكير وتركت عقلي يقودني إلى أماكن غريبة لدرجة أنني
نسيْتُ فيما كنت أفكر إلى أن شعرت بالنعاس يتسلل إلى
تلابيبِ مُخي، ثم بين اليقظة والنوم سمعتُ الباب يُفتح..
حاولت أن أرفعَ رأسي لأرى مَنْ دخل لكن رأسي كان
ثقيلاً مثل طنٍّ من الحديد.. عاد البابُ يُغلق ثم سمعتُ
صوتَ المفتاح يدورُ في القفل.. أدركتُ أن مَنْ دخلَ قد
أحكمَ الإغلاقَ جيداً.

- مين؟

قلتها مرتعشاً..

سمعتُ صوتَ فحيحٍ مُخيفٍ..

لمحتُ ظلالاً كثيفةً تتجمّع أمام وجهي..

لوهلةٍ توقّف قلبي عن العمل..

دارت الظلالُ من حولي دورةً كاملةً..

حاولت النهوض لكن جسدي كان مشلولاً يرفضُ

الاستجابة لي..

راحت الظلال تتخذ شكلاً بشرياً.. امرأةً عجوزاً
مُحترقة الوجه ترتدي فستاناً أسود طويل الأكمام ولها
ذيلٌ طويلٌ يتلوى مثل الثعبان..

نظرت لي دون أن تتكلم..

اقتربت مني ومدت يدها نحو وجهي..

حبست أنفاسي بأقصى ما أستطيع..

شعرتُ بمخالبتها تخدش وجهي.. ظننتُ أنها انتزعت
جزءاً منه.

حاولت أن أصرخ.. حنجرتي عجزت وأعلنت فشلها..
وبهدوء ملاك الموت طارت العجوز في الهواء حتى
التصقت بالسقف، ثم صرخت صرخةً مُرعبةً..

هذه المرة استطعتُ أن أصرخ..

صرختُ عالياً..

عندئذ أدركتُ خطئي الجسيم.. قفزت العجوز داخل
فمي.. لا أعرف كيف.. لكنها في لحظةٍ صارت داخلي.

سمعتُ صوته يدعوني للدخول:

- ادخل!

دفعت الباب ودخلتُ.. ولكن طاهر لم يكن موجوداً..
غرفته في حالة فوضى رهيبية وكان معركةً حامية الوطيس
دارت فيها.. الأثاث مُبعثر ومقلوب.. الأجهزة والأكواب
مُهشمة.

جاءت راجية وولاء.. هالهما الوضعُ.. طلبتُ منهما ألا
يقلقا ثم توجهتُ للبحث عن طاهر..

رحتُ أفتش غرفَ المنزل غرفةً غرفةً.. وصلتُ إلى
حمام الدور الأخير.. لم أدخله من قبل.. كان بابُه مُتهالكاً
تفوحُ منه رائحةٌ مُقززة.. ناديت:

- طاهراااا..

أجابني الصمتُ..

وضعت يدي على أنفي ثم دفعتُ الباب بقدمي
ودخلتُ.. تحسَّست الحائط حتى ارتطمت يدي بمفتاح
الإنارة.. ضغطتُ عليه بلهفةٍ شديدةٍ.. أضأتُ لمبةً صغيرةً
تتدلى من سلكٍ أسود طويل.. كان نورها ضعيفاً لكنه كافٍ
لتمييز الأرجاء جيداً.. الجدران تقشر منها الطلاء واكتست
بطبقة عفونة رمادية.. خيوط العنكبوت تغزو كل ركن

وكل قطعة بلاط.. هناك رأيت سخانًا قديمًا من ماركة مشهورة يبدو أنه معطوبٌ وبلا فائدةٍ.. في زاويةٍ كانت توجد قعدة إفرنجي زرقاء اللون بجوارها بانيو بنفس اللون يعلوه دش عبث الصدا في طلائه .. ولا أثر لطاهر.

هممتُ بالرجوع لكن صوت قطرات الماء التي تتساقط داخل البانيو أوحى لي بفكرة.. تحركتُ بخطواتٍ حذرةٍ نحوه.. ارتعش نور اللمبة ثم تأرجحت في مكانها.. تسمّرت في مكاني.. كان الماء يملأ البانيو حتى الحواف.. بدا لي للوهلة الأولى وتحت الإضاءة الضعيفة، خاليًا، صافيًا.. مددتُ يدي فيه فكسرت صفاءه.. أخرجتُ كشافًا صغيرًا وصوّبته باتجاه القاع.. في الأسفل رأيتُ جسد طاهر عاريًا يرقد تحت الماء وقد تخشّب جسده كالأموات.

أخرجتُ طاهر من الماء..

حملته إلى حجرته ثم بدّلت له ملبسه المبتلة بملابس أخرى جافةٍ ونظيفةٍ وسط لوعة راجية وذعر ولاء.. كان من المفترض أن أبتّ لهما الطمأنينة لكنني في الحقيقة كنتُ أكثر هلعًا منهما.. أشعلتُ بجواره المدفأة الكهربائية

وأدرتها باتجاهه ثم خرجتُ بينما بقيت ولاء وراجية
بجواره من أجل رعايته.

في طريقي للأعلى سمعتُ صوت حفرٍ يأتي من مكان
المقبرة.. لاحظت أن هناك آثار أقدام حديثة في النفق الذي
يقودُ إليها.. نزلت النفق الذي كان يتنفس برائحة الموت..
توقَّف الحفرُ وخفَّ الصوتُ بعد أن أربكته حركتي..
صحتُ:

- مين؟

لم يأتيني رد.. أبصرتُ معولاً على الأرض وحفرةً جديدةً
تم صنعها اليوم.. من جديدٍ صحتُ:

- مين موجود؟

من وسط بقعةٍ مظلمةٍ خرج هتler والعرق يتصبَّب
على جبينه ويسيلُ حتى صدره.. قلتُ:

- بتعمل إيه هنا؟

- حقي.. جاي أخذ حقي..

أمسكته من ذراعه:

- طيب إمشي من هنا ومش عاوز أشوفك تاني..

سحب ذراعه، وقال بلهجة تهديد:

- أنا مش خارج إلا ومعايا حقي..

كنتُ أغلي من الغضب.. حاولتُ أن أشرح له مرض طاهر، لكنه كان مثل حمار وحشي لا يفهم غير كلمةٍ واحدةٍ ظل يُرددها.. حقي.. ثم تجاهلني وأمسك المعول وبدأ يحفرُ من جديدٍ.. حاولتُ منعه.. احتدم بينا النضال.. تطوحنا كثيرًا.. لا أذكر كيف دار القتال.. كان مثل الحلم.. فقط كل ما أذكره هو حركة المعول..

المعول يرتفعُ في الهواء.. المعول يهبطُ فوق رأسي..
ثم أظلم كل شيء.

فتحت عينيَّ بصعوبةٍ..

كنتُ على ظهري وصوتُ صرير معدني يؤلم أذني.. السقف يتحرك بسرعةٍ فوق رأسي.. حين استوعبت الموقف أدركت أنني فوق محفةٍ يدفعها ممرضٌ داخل أروقة مستشفى.. حاولت الكلام لكن صوتي لم يخرج من حلقي.. أخرج الممرض هاتفه وانهمك في حديثٍ غاضبٍ مع زوجته.. دار بينهما شجارٌ حول مصروف البيت، ثم دروس الأولاد، وأخيرًا حول نوع الغداء.. لو كنتُ أملك القوة

على إسداء النصيحة لأخبرته أن يتناول أي هراءٍ ستقوم بإعداده ثم يقتلها بعد ذلك.

إغماءةٌ صغيرةٌ وأفقتُ لأجدَ نفسي ما زلت على المحفّة.. ثوانٍ شعرتُ بأيدي قويةٍ ترفعني وتضعني على منضدة الجراحة.. ثم حين حاولتُ أن أنطق بكلمةٍ شعرت بوخز إبرة التخدير في ذراعي، وفي الهواء رأيت زوجًا من عيون الشيطان تنظران لي من وراء كمامةٍ بيضاء.

ليومين متتاليين ظللتُ في المستشفى.. خلالهما أجريتُ جراحةً عاجلةً لمنع النزيف وتعرفت على الممرض الذي كان يتحدث في المحمول.. كان يُدعى عباس، مبتذل المظهر لكنه بشوش، وقد تخرج في المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، ولا يوجد أي تفسير منطقي لكونه يعمل ممرضًا سوى أن ذلك المستشفى سمك لبن قمر هندي.. على الرغم من هذا فقد كان خدومًا إلى أقصى درجةٍ يكفي أن تبرز له ورقة نقود لكي يتحرك، غير ذلك هو لا يسمع ولا يرى..

ولاء جاءتني قبل مغادرتي المستشفى.. تمنيت أن أشم عطرها الحاد المميز فقد كانت رائحة الكلورفورم هي

الرائحة الوحيدة التي ظللت أشمها أثناء وجودي.. للأسف
خيبت أملي.. أتت من دونه هذه المرة.. أخبرتني أن هتلىر
هرب وأنهم لم يبلغوا الشرطة خوفاً من اكتشاف النفق..
وبالنسبة لطاهر فقد قامت راجية بحبسه في غرفته.

وهكذا أمضيت يوماً آخر ثم غادرت في الصباح.. في
طريقي مررتُ على مكتبةٍ أحضرت منها مجموعةً من
الكتب المستعملة التي تتحدث عن عالم الجن والقرين..
وصلتُ للمنزل حيث استقبلتني ولاء على عتبته.. بعد
حزني قصيرٍ وقبليةٍ طويلةٍ قالت:

- وحشتني!

- وإنتي كمان..

ثم سألتها:

- طاهر عامل إيه؟

أجابت بنبرةٍ حزينةٍ:

- من سيئٍ إلى أسوأ.

في تلك اللحظة جاءت راجية والتي عادت لتوها من
الخارج:

- حمد لله على السلامة..

قالتها ثم أزاحت قناع التحفظ من على وجهها
واحتضنتني..

سألتها عن صحتها وحالتها، فأجبت أن (الحمد لله)..
تركتها مع ولاء ثم ذهبتُ إلى طاهر.. رأيت القفل الضخم
الموضوع على غرفته فأحزنني الأمر جداً.. دخلتُ عليه
فوجدته يجلسُ وهو يحملُ فوق رأسه أحزان الكرة
الأرضية.. لاحظت أن وزنه قد انخفض كثيراً.. تحدثت معه
فكانت كل إجابته طبيعية.. بعد أن تركته تعمّدت ألا أضع
القفل.. نادى عليّ:

- حط القفل!

ثم سبّني.

- عاوز أشوفك!

كانت تلك الجملة الافتتاحية التي قالها هتلى حين
أجبتُ اتصاله.. قلتُ:

- أنا لو شفتك هطحنك..

- ورحمة أبويا وأمي أنا مكنش قصدي أأذيك.. الضربة
جت من غير قصد..

- على العموم مفيش كلام بيني وبينك..

هتف قائلاً:

- اسمعني يا أستاذ مجدي.. تعال اقعد معايا نتفاهم!

اكتفيت بالصمت.. عاد يقول:

- اقعد واسمع هقول إيه مش هتخسر حاجة!

أجبتُه بعد جدالٍ طويلٍ بيني وبينه:

- كمان نص ساعة على قهوة سنية..

وأنهيت المكالمة وخرجت متوجهًا إلى مكان اللقاء.. كان الوقتُ حينها في الثلث الأول من النهار والجو رطب به لمسة برد جميلة.. وصلت إلى القهوة التي لم يدبَّ فيها نشاطُ الزبائن بعد.. رأيتُ سنية في مكانها المعتاد بينما سنفور يُهيئُ المقاعد ويمسح الأرضية.. لمحت هتلر يُدخن شيشة وهو يتخذ لنفسه ركنًا منزويًا.. توجهتُ ناحيته بعد أن حييت سنية وسنفور.

- عاوز إيه؟

قلتها حين جلستُ في مواجهة هتلر..

- طيب اشرب حاجة الأول!

- اخلص!

أجاب بصوتٍ خافتٍ:

- المقبرة.

ضحكتُ:

- طب متاخذها.. حدّ مانعك!

شاطرني الضحك قبل أن يُقطب جبينه فجأةً ويقول:

- أنا بتكلم جدّ.. وصلت لشيخ بس أجمد من ابن
الحرام السيناوي و..

قطع حديثه حين جاء سنفور يسألنا عن طلباتنا..
طلب هتلر براد شاي وانتظر حتى انصرف، ثم قال:
- كل الي أنا عاوزه تدخّلني أنا وهو.. ووعد من أخ
لأخوه، ليك تلت الي هيطلع..

لمحت سنية تُتبعنا من بعيدٍ باهتمامٍ.. قلتُ هامسًا:

- يا بني آدم، افهم.. البيت مقلوب.. وطاهر عيان..
ولو أنا وافقت، راجية مش هتوافق..
- إنت لو عاوز هتصرف.. دي حجة منك..

جاءنا صوت سنية ناصحًا:

- الحرام زي المية المالحة مبيرويش..

قال هتلر:

- سيبك من بنت الهرمة دي.. ليك النص قلت إيه..
أجيب الشيخ النهاردة.

- إنت سمعتني.. مش هكرر كلامي..

وتركته بعد تهديدٍ مني بقطع رقبته إذا ما رأته مرةً
أخرى.

الفصل السابع

في المساء.. أطفئت الأنوار كلها في آنٍ واحدٍ.. في البدء ظننت أن هذا انقطاع طبيعي للتيار الكهربائي لكن نظرة من النافذة واكتشفت أننا المنزل الوحيد المظلم.. تفحصت الوصلات الكهربائية.. كان كل شيء على ما يُرام وسليماً تماماً.. لا يوجد سببٌ منطقي لانقطاع الكهرباء.. اتصلت بشركة الكهرباء وأخبرتهم بما نحن فيه.. أخبروني بأنهم سيُرسلون مَنْ يتفحص كشك الكهرباء.. طبعاً لم يأت أحد.

وضعت ولاء القفل على باب غرفة طاهر ثم أخبرتني أنها ستبيت الليلة مع راجية.. تصنعت التفهم وتركتها تذهب..

صعدتُ إلى غرفتي مكتئب الروح.. كانت تلك المرة الأولى التي أبات فيها هنا بمفردي.. كنتُ أشعرُ بوحشةٍ شديدة.. أشعلتُ كشافًا صغيرًا واستلقيت على السرير.. حاولتُ أن أنام لكن النوم كان يُجافيني.. تذكرتُ ما اشتريته من كتب.. شعرتُ برغبةٍ ملحةٍ في الاطلاع على هذا العالم الغريب.. اعتدلتُ في مكاني ثم تناولتُ أحد الكتب ويدعى (عهد الشيطان).. في أول صفحةٍ به كانت تُوجد رسمةٌ تخيليةٌ للجن.. كانت الرسمة تُصور الجن مخلوقًا ضخماً مُروّعًا له حراشف حمراء يقف على ثلاثة أرجل، لديه عينان مشقوقتان بالطول ووجهٌ مخيفٌ يتدلى منه لسانٌ مشقوقٌ كالثعابين.. ملأتني هذه الصورة خوفًا ورهبةً..

ألقيت الكتاب وتناولتُ آخر.. قرأتُ المقدمة.. كانت تقول إن الجن ظهر قبل الإنسان بنحو ٢٠٠٠ سنة وإنه أول من سكن الأرض وعبد الله فيها..

خلف المقدمة لمحت بقعة دماء جافة لونها كان يقترب من البني الداكن.. تساءلتُ عن أي إنسان كانت تجري به تلك الدماء وإلى أين صار مصيره الآن.. هل كان يجلسُ مثلي يقلب الصفحات أم أن ما في الكتاب استهواه فحاول

أن يُجرب إحدى التعاويذ مُستخدماً دماءه.. انتابتنى رغبةٌ
ملحةٌ في معرفة صاحب تلك الدماء..

تصفّحت الكتاب بسرعةٍ لعلني أجدُ ما يدل عليه..

استوقفتني معلومةٌ في المنتصف.. كانت عن شيء يُدعى
(الأرياح).. وهي عبارةٌ عن موجاتٍ للجن تتخلل هالة
الجسد البشري حين اقترابهم من البشر وتؤدي إلى الشعور
بالتميل أو القشعريرة وأحياناً بالثقل.. كان هذا هو
التفسير لنوبات القشعريرة والتميل التي كانت تنتابني
كلما اقتربت من طاهر.

لم أستطع الاستمرار فيما أفعل.. عُدت من جديدٍ
أحاول النوم.. أغمضت عينيّ بإصرار.. حركتُ رأسي..
تقلبت على الفراش كثيراً حتى بات ملتهباً ساخناً.. أخيراً
نهضتُ بعد أن أوى النوم أن يزورني.. من حُسن الحظ أنه
لا يفصلُ بيني وبين السطح غير سلم.. ارتديت ملابسني
وصعدت مسرعاً متلمساً هواءً نظيفاً وروحاً من الحرية..
في الأعلى كان القمرُ قد غاب تاركاً وراءه ظلاماً لا ينتهي..
استندتُ على جدارٍ جانبي ورحتُ أتأمل أسطح المنازل
المائلة.. بدت لي الأسطح كشواهد قبور تتناثر بلا تنظيمٍ
وبعشوائيةٍ وإن كانت مخيفةً وكئيبةً..

سمعت حركةً متوترةً من خلفي.. أصابني الروع..
هناك أحدٌ غيري.. التفت إلى الورااء وقلتُ مُحاولاً تمالك
أعصابي:

- مين؟

لم يُجبني القادم..

على الأرضية الصُّلبة لمحتُ ظلالاً عديدةً مُختلطةً..
تجمّدت.. لا أعلم كنهَ هذا الشيء الذي يقتربُ.. كنتُ
أرغبُ أن أصرخ لكنني خشيت أن أتهم فيما بعدُ بالجنون
إذا ما كان الأمرُ مجرد ظلال أو أوهام عابثة..

وبدافع غريزتي رحْتُ أقرأ قرآنًا وأستعيذ من الشيطان
والجن وكل ما يمكن أن يُصيبني منه أذى أو ضرر.

فجأةً ظهرت ولاء..

تقدمت نحوي مبتسمةً..

تنفستُ الصعداء.. من حُسن الحظ أني صمدت حتى
النهاية.. قلتُ:

- مش قلتي هتباتي مع والدتك؟

لم تنبس ببنت شفةٍ.. وضعت إصبعها على فمي
وألزمتني الصمت.. ثم أسقطت الثوب عن جسدها في

حركةٍ واحدةٍ.. انكشفت أمامي كما ولدتها أمها.. التصقت
بي فصارت أنفاسُها الحارة تلمح صدري..
وضعتُ يدي حول مُحيط خصرها الساحر وقبّلت
عنقها..

ماذا حدث بعد ذلك..؟

كيف شعرت ومتى فعلت..؟

لن أذكر.. فقط يكفي أن أقول أن تلك المرة، هي
الأفضل والأكثر متعةً، وفيها رُحنا نتقلب معًا حتى
التصقتُ أتربة الأرض بجسدينا وأسبغتنا لذةً لا تنتهي.
- |||||اهاه..

قطعْتُ كلَّ شيء صرخةً عاليةً مفزوعةً..

رفعتُ وجهي نحو مصدر الصوت.. كانت ولاء تقفُ
مع راجية، وينظران لي بذعرٍ وهلعٍ شديدين في حين كنتُ
أنا عاريًا وأتمرغ فوق الأرض بمفردتي.

لم تُصدق ولاء أي كلمةٍ مما أخبرتها..

أقسمتُ لها أنني كنتُ معها بينما أقسمت لي أنها
قضت الليل كله مع والدتها.. وأنهت كلامها:

- ومن إمتى إحنا بنعملها فوق السطح زي البهايم!
احمرّ وجهي بقوةٍ وأحسستُ بنارٍ تحرقني من
الداخل وأنا أبحثُ عن ردٍّ مناسبٍ، فلم أجد.. بعد برهةٍ
سألتها وأنا أرتعد:

- أمّال أنا كنت مع مين؟!!!

- عفريته!!

قالتها راجيةٍ ثم تركتنا بعد أن صفقت خلفها الباب.

طوال ما بقي من الليل ظللتُ غارقًا في الأفكار
المُختلطة.. حين أتى الصباح كنتُ قد قرّرت أن كل ما نحن
فيه من مصائب راجع لما فعله السيناوي بطاهر.. ركبْتُ
السيارة وتوجّهت له.. تجاوزتُ إكرام، واقتحمتُ عليه
خلوته.. رأيتُ الدهشة على وجه السيناوي، وقال:

- على مهلك.. الدنيا اتخلقت في ست أيام!

قلت وأنا أمسكه من تلايب عنقه:

- عاوز أعرف إنت عملت إيه بالضبط في طاهر؟

- أنا مبعملش حاجة..

ثم رفع إصبعه لأعلى واستطرد بإيمانٍ كاذبٍ:

- ربنا اللي بيعمل!

في تلك اللحظة أتى إكرام ومعه كوب يانسون تتصاعد منه أبخرةٌ رماديةٌ.. تناوله منه السيناوي والذي بدوره ناوله لي قائلاً بودّ:

- اشرب الأول وريِّح أعصابك عشان نعرف نتكلم!

ترددتُ قليلاً.. رشفتُ رشفةً سريعةً.. من قال إنني أخشى الجن أو حتى الموت..

لمحتُ ابتسامةً ماكرةً على طرف فم السيناوي شعرتُ بعدها برعشةٍ باردةٍ تلف جسدي ثم راح يتحدثُ ويتحدثُ.. لم أعد أميّز أو أفهم ما يقول.. كلماته تصلُ إلى أذني مثل الرعد.. تصنَّعت الفهم والإصغاء..

أشعرُ برغبةٍ عارمةٍ في الاستلقاء والنوم الآن.. تذكرتُ الآن أن الينسون كانت له رائحة غريبة.. نهضت مترنحاً.. أرى السيناوي ينقسمُ إلى ثلاثة رجالٍ يحملون ملامح مختلفة.. فركتُ عينيَّ حتى كدت أن أدميهما.. أحسستُ أنني فقدتُ الوعي لوهلةٍ.. لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك، فقط حين استيقظتُ كنتُ ممدداً بجوار سيارتي..

نهضتُ وأنا أسيرُ مثل المخمور.. ركبْتُ السيارة ثم
قدتها بلا هدفٍ.. لا أعرفُ أيضًا لماذا توقفت أمام مدخل
السوق.. ربما هي تلك الأنوار التي سرقت عيني..

خرجتُ من السيارة.. أخذتُ أدورُ في السوق مثل
المجنون.. عاصفة من الوجوه تضرب عقلي وتدورُ من
حولي بلا هوادة.. نجوم كثيرة تنفجر ثم تخبو.. لم أعد
أميز بين الوهم والحقيقة.. أرى جدًّا ينطح آخر.. وجدتُ
ظلاً تموج ثم تشكّل سريعًا على هيئة امرأةٍ عجوز:
- ضعيف..

ثم أطلقت ضحكةً ساخرةً واختفت.. قلتُ مأخوذًا:

- إيه.. فيه إيه؟

اصطدمت بامرأةٍ تُخفي شعرها بإيشارب أحمر..
لمعت عيناها:

- ابن آدم..

ثم ظهر لها جناحان كبيران وطارَت في الهواء..

ماذا يحدث..

طفل وطفلة يلعبان على الأرض.. انقلبت ملامحهما
فجأةً.. صاحا:

- مخلوق من طين..

أكمل فلاحُ شاب:

- ضعيف..

واستطرد عجوز:

- ومهما حاولت..

ثم حرك غراب رأسه نحوي وصرخ:

- روحك ملكنا..

فجأة رأيت نفسي أنتقل في طريقِ خالٍ وأسيرٍ وحيداً..

كيف.. كيف..

خرج من تحت الأرض أشخاصٌ لهم وجوهٌ طويلةٌ
ممسوحةٌ وقرونٌ معقوفةٌ يحوطونني.. أحدها يدنو مني..
قبل أن أبتعد عنه يطعنني بقرنه في معدتي.. صرختُ..
تهاويت.. أمسكتُ أمعائي التي قفزتُ من موضع الطعنة..
أطبقتُ عيني من الألم وفي لحظةٍ تميت ألا أفتحهما أبدا.

لحظة انبلاج الفجر..

كان هذا هو الوقت الذي استعدت فيه وعي..

أرى ولاء تجلسُ على طرف السرير بجواري قلقة
العينين والروح معًا.. تطبعُ قُبلةً على خدي حين انتبهت
لي:

- ألف سلامة.. قلقنتني عليك!

أفهم منها أنني فقدت الوعي في السوق وأن بعض
أولاد الحلال قد جاءوا بي إلى هنا مع طنٍّ من التساؤلات
حولي والتي انتهت إلى إجابةٍ من ولاء بأنني تعرّضت
لحادثةٍ في رأسي من وقتٍ قريبٍ وهذه هي آثار مُرتبة
عليها..

قبل أن أخبرها بما حدث سمعتُ طرفًا خافتًا وملاحقًا
ثم صوت راجية.. تدخل ثم تخطو نحوِي مع سؤالٍ
سريعٍ عن أحوالي.. أخبرتها أنني بخير وأنها مجرد وعكة
ليس أكثر.. انتظرتُ حتى خرجت ثم حكيت لولاء عن
كل ما حدث.. كانت تستمعُ لي في مزيجٍ من الدهشة
وعدم التصديق أو لنقل لعدم الفهم.. بعد أن انتهيتُ من
حكايتي أخبرتني أنها ستنزُل لتلقي نظرةً على طاهر..

قررت أن أذهب معها.. ارتديت ملابسني سريعاً على عجلٍ
ونزلت..

في الداخل كانت غرفة طاهر تغرق في الظلام كما
اعتدنا لكنني سمعت صوت خدش متواصل.. حاولت
إشعال الأنوار لكنها لم تعمل.. أضاءت ولاء كشافاً كهربائياً
صغيراً.. على نوره الشاحب رأينا طاهر يحفرُ بأصابعه
على الجدران فتختلط دماؤه ببقايا أظفاره في مشهدٍ
بشع.. هرعت نحوه أنا وولاء وقمنا بالحيلولة بينه وبين
ما يفعل وسط صراخه ومقاومته الشرسة.. قمنا بعد
ذلك بتقييده حتى نمنعه من إيذاء نفسه.. في تلك الأثناء
جاءت راجية والتي جلست عند قدم ابنتها تبكي بينما
هو يتصرف مثل الشخص المصاب بالصرع..

ألقيت نظرةً على ما رسمه طاهر على الجدار.. كان
عبارةً عن دائرة تحوي داخلها رؤوس شياطين يأكل بعضها
البعض، وقبل أن أحتار في معناها دوّت في ظلام عقلي كلمةً
غريبةً.. (برهوت).

- الزَّار هو الحل!

قالتها راجية بانفعالٍ.. اقترحتُ عليها أن نلجأ للعلاج
النفسي.. ردَّت فيما يُشبه العويل:

- ابني مش مجنون.. ابني ملبوس.

انفعلت:

- ابنك مجنون.. متضحكيش على نفسك.

أجهشت في البكاء وأخذت ترتجف.. نظرت لي ولاء
بعتاب ولوم وهي تحتضن والدتها.. أشحتُ وجهي عنهما
في سخطٍ.. نهضت راجية بلا مقدماتٍ واتجهت لحجرتها..
هرعت خلفها ولاء بينما مكثتُ في مكاني أتشاجرُ مع طنٍّ
من الأفكار والكلمات..

بعد برهةٍ ظهرت راجية من غرفتها وقد ارتدت ملابس
الخروج وأخفت وجهها بنقابٍ طويلٍ أسود.. نظرت لي
نظرةً طويلةً تحوي حقداً ثم خرجت من المنزل..

جاءتني ولاء متكسرة الأعصاب، وجلست بجواري وهي
تتنهد في تعبٍ ويأسٍ.. قالت:

- مكنش ليهم لازمه الكلمتين بتوعك..

زفرت:

- طلّعوا غضبن عني..

ثم سألتها:

- هي رايحة فين؟

- هتروح تجيب (العريفة)^(١)

غابت راجية مدة طويلة حتى دبّ فينا القلقُ وصرْتُ على وشك الخروج للبحث عنها بناء على طلب ولاء، التي وكالعادة راحت تبكي.. لكن وحين الليل قد أوشك على بسط عباءته السوداء دخلت علينا.. خلعت النقاب عن وجهها فوضح عليها التعب بينما احمرَّ وجهها وجحظت عيناها بشدة..

جرت نحوها ولاء لتطمئن عليها بينما ظللت في مكاني أراقبُ ما يحدث:

- اتفضلوا!!

قالتها راجية بصوتٍ عالٍ فدخلت امرأةٌ ضخمةٌ مستديرة الوجه، تُخفي خلف ملابسها السوداء نهدين متدليين، وتنقش يديها بالحنة.. ألقت علينا سلامًا دافئًا وهي تجول ببصرها في الأرجاء..

(١) العريفة: هي المسئولة عن طقوس الزار

رددت عليها السلام وأنا أفحصُ كل جزءٍ في وجهها الذي
بدا بالنسبة لي صعب التذكر.. كانت ملامحها بسيطةً لكن
يكفي أن تدير وجهك عنها لتتساها سريعًا.. شيء غريب
لم أعهد مثله من قبل.. علمت فيما بعد أنها العريفة.

دخلت بعد العريفة امرأتان أقل منها حجمًا وسنًا،
وتبدو عليهما ملامح الخنوع والطاعة.. كانتا تحملان
حقائبَ جلديةً تكاد أن تنفجر من كثرة ما تحويه.

طلبت راجية من ولاء أن تفتح إحدى الغرف للعريفة..
علمت أيضًا أنهن سيبقين أربعة أيام عندنا.. قطعًا أنا لا
أملك سلطة القبول أو الرفض.. فقط سوف أكتفي بدور
المتفرج وأتابع كل ما يجري.

عند قرب منتصف ليلتهم الأولى طلبت مني راجية أن
أصعد بطاهر إلى سطح المنزل..

استجبتُ لطلبها وتوجهتُ إلى طاهر.. كان جالسًا على
طرف سريرهِ وهو يتأوه.. حملته لاعتنا اليوم الذي جئتُ
فيه إلى هنا..

حين وصلتُ للسطح كانت في انتظارنا العريفة وهي
ترتدي فستانًا أبيض فضفاضًا مزينًا بمربعاتٍ حمراء،

وتضع عمامةً خضراء مشغولة ومزركشة بالخرز والأصداف
الدقيقة..

أشارت لي بأن أضع طاهر على الأرض وتحديداً داخل
دائرةٍ قامت برسمها.. كانت الدائرة مرسومةً باللون
الأحمر وقد امتلأت من الداخل بأرقامٍ وحروفٍ تمت
كتابتها مقلوبةً..

أسكنت طاهر داخل الدائرة ثم توجهت إلى راجية
وولاء اللتين اكتفتا بالوقوف بالقرب من الجدار الخارجي
للسطح..

راحت التابعتان تدقان على دفوفٍ كبيرةٍ وتدوران
حول طاهر ببطءٍ.. وشيئاً فشيئاً رحن يزدن من إيقاعِ
الدفوف والحركة على نحوٍ تصاعدي..

أشعلت العريفة البخورَ من طاسةٍ نحاسيةٍ فتصاعدت
أجنحة الدخان الرمادية وحلقت في الهواء.

- الأميرة، هاك الجاوي، هاك البخور..

العريفة تُردد هذا النشيد بلا توقف.

نظرت نحو ولاء التي انكشمت داخل نفسها بينما
راجية تتابعُ ما يحدثُ في شغفٍ.

طاهر أفاق من تخشُّبه وبدأ يدورُ حول نفسهِ ببطءٍ
ويتحرَّكُ مثل الزومبي.. اتسعت عينا العريفة وأحضرت
ديكًا أسود ذبحته فوق رأس طاهر وجعلته يشربُ من
الدم الحار الذي ينسابُ عليه.. بعد أن انتهت مسحت
فم طاهر بمنديلٍ فصرخ هذا الأخيرُ صرخةً مدويةً ثم
انهار على الأرض بلا حراكٍ.

طلبت مني العريفة أن أحمله وأعود به إلى غرفته..
نفذت ما قالت في حين انشغلت هي بحديثٍ هامسٍ
مع راجية.

اليوم الثاني..

تم تكرار كل ما سبق غير أن العريفة بدَّلت فستانها
الأبيض بأخر أصفر اللون، وذبحت معزةً سوداء.

اليوم الثالث..

كان هو اليوم الأخير.. أخبرتنا العريفة أنه اليوم الذي
سُتخرج فيه الجن من جسد طاهر.. ارتدت فستانًا أحمر
ووضعت حول خصرها حزامًا عريضًا أزرق..

أشعلت نارًا عظيمةً ثم طلبت مني أن أضع طاهر
داخل الدائرة.. صاحت ولاء:

- هتعملي فيه إيه؟

حدجتها العريفة بنظرةٍ غاضبةٍ دون أن ترد.. التفتت
نحوي بعدما انتهيت من إسكان طاهر الدائرة:

- نزلها تحت أحسن!

ثم شدت وثاق طاهر الذي شاهت عيناه وسال الزبدُ
على جانب شدقيه وراح ينتفضُ بشدةٍ..

أفلتت مني ولاء حين هممتُ بأن أنزلها، وحاولت
أن تفك وثاقه لولا أن منعتها راجية، وقالت فيما يُشبهه
الرجاء:

- سيبها.. أبوس إيدك.. عاوزين نخلص!

تبادلت كلاهما النظرات والصراخ.. صاحت ولاء بأن
هذا ضربٌ من الجنون.. نحيتها جانبًا بصعوبةٍ.. أعلم يا
عزيزتي أن هذا ضربٌ من الجنون لكن الاعتراض الآن صار
بلا فائدةٍ.. فقط اصمتي وتابعي مثلي ما سيحدث.

قالت العريفة بصوتٍ غليظٍ:

- أجب يا روقيا ئيل أنت وأعوانك العلوية، أجب يا
أحمر أنت وخدامك الأرضية، بحق الملك سمسما ئيل
الملك الموكل بثوائم العرش طيكل، يا كسفيائيل أنت
وأعوانك العلوية، أجب يا ميمون أنت وخدامك
الأرضية، أجييوا يا معاشر الأرواح الروحانية العلوية
والخدام وبحق الأسماء العظام.

ثم أخرجت سوطاً من الجلد المجدول ولوّحت به في
الهواء فأصدر فرقعته المُخيفة..

- اخرج منه يا معلون.. اخرج!

حدث كل شيء بعد ذلك كلقطاتٍ متقطعةٍ بالأبيض
والأسود.. صرخات تهديد ووعيد.. السوط يمرحُ فوق
طاهر عدة مراتٍ.. لحم ممزق.. لكما تٌ على الجسد
والوجه.. أسنانٌ تطير في الهواء.. دماء متناثرة.. فجأة الحبال
حول معصم طاهر تتمزّق.. الوحش الهائج يتحرّر.. ومن
ثم العريفة تطيرُ في الهواء بعد أن طحنها طاهر بقبضته..
أوشك أن يفتك براجية وحاصرها قبل أن تهرب.. بصعوبةٍ
شديدةٍ استطعت أن أقيده وأمنعه أن يُسبب المزيد من
الأسى، بينما هوت ولاء على الأرض وقد أصابتها صدمةٌ
عصبيةٌ.

خيّم الصمتُ على المنزل بعد أن رحلت العريفة وبعد
أن تقاضت أجراً مُضاعفًا جرّاء ما أصابها من أذى.

الأيام التالية قمنا بحبس طاهر في غرفته، واقتصر
اتصالي به على إدخال الطعام إليه ثم الخروج سريعًا..
للأسف استحال إلى كائنٍ مُخيفٍ ولم يعد يتحدث فقط
هو يصرخُ، ويصرخ.. ويصرخ.

ولاء أصابها الضمورُ وكذلك راجية.. صلة ما بينهما
تنشأ واستحالت الأم إلى شبحٍ يغدو كل ليلة.

أحيانًا كنتُ أتجوّل بالسيارة محاولاً قتل الوقت ولأخذ
متنفسٍ من الحرية والخروج من جوّ الكآبة والحزن.

- بيتهالي إنت ندمان إنك جيت معايا!

قالتها ولاء بصوتٍ متهدجٍ وعينين متوجستين.. كنتُ
وقتها أنظر من شرفة المنزل وأراقبُ إسدال الليل أستاره
فوق أسطح منازل القرية المنخفضة.. التفّتُ إليها:

- آه!

لا داعي للكذب أو لتصنُّع الشهامة والفروسية.. لستُ
أنا هذا الرجل.. أنا بالفعل أشعر بالندم وأتمنى لو كنتُ
خنقتها.. استطردت:

- بفكرٍ أرجع!

أحاطني بذراعيها ثم أسندت رأسها إلى كتفي.. قالت:

- وتسبني هنا لوحدي!

أطلقت تنهيدةً، ثم أرسلت يدي في شعرها:

- مش عارف..

- مش عارف إيه؟

- أنا بقول نرجع وننسى اللي حصل هنا ونكمل حياتنا!

تُخبرني أن ذلك ليس خيارًا بالنسبة لها..

للأسف يا عزيزتي بقائي أيضًا لم يعد كذلك.. في الصباح
كنتُ أركبُ سيارتي وأغادر.. قبل ذلك ودَّعتني ولاء أمام
بوابة الخروج.. احتويتها بين ذراعيَّ حين قبَّلتها مُودعًا..
شعرتُ بجسدها يرتعش داخلي ودموعها تتسللُ عبر
قميصي وتبللُ صدري.. تتضرع:

- متسبنيش!

أجبتها هامسًا:

- إحننا لسه فيها.. ارجعي معايا!

لم ترد عليّ.. بلعت دموعها ثم انسلت من بين يديّ..
تركنتني وعادت مهرولةً.. ولسبب ما شعرت أن هذه آخر
مرة سأراها.

الفصل الثامن

لم يكن يجدر بي أن أتركها..

هكذا فكّرت حين عُدت وبعد أن ألقىتُ بنفسي على
السرير الذي اهتزَّ وارتعش كثيراً..

دفعْتُ وجهي باتجاه السقف وشردتُ حتى أعماني
الوقت.. أيقظني رنينُ الهاتف يأتي مسعوراً.. كان مدير
التحرير يستفسرُ عن تأخري في العودة للجريدة.. اعتذرت
له وأخبرته أنني سأكونُ موجوداً أمام باب الجريدة من
الصباح الباكر..

وبالفعل عُدتُ إلى روتين حياتي مثل نحلةٍ بائسةٍ تنتظرُ
أن يقتلها دبور.. لكن كان لا يكاد يمرُّ يومٌ دون أن يتملكني

الحنين لولاء، على الرغم من أنني حاولتُ محوَّها من
عقلي إلا أنها ظلت كامنةً وراسخةً في وجداني..

كنتُ فيما مضى أقضي النهار في العمل، والليل في السهر
أو محاولة الانتحار بطريقةٍ تجعلني رائعًا.. الآن أنا فقط
أتمدد فوق السرير أتأمل السقف وأفكر فيها.. أخشى أن
أبدأ العويل عليها.. حقيقي لقد سالت من عيني دمعَةً
أو دمعتان لكنهما بالتأكيد بسبب لفحة هواء!!..

أفكر في أن أركب سيارتي ولا أتوقف حتى أصلَ إليها..
لكن أظن أن عودتي بهذه السرعة وتلك الطريقة ستجعلني
أبدو بمظهر الذليل..

كان التردد يقفُّ كل مرةٍ حائلًا بيني وبين مكالمتها..
لكني أكملت الاتصال

أسمع جرس المكالمة مثل دقات قلبي أثناء محاولتي
استدعاء الكلمات التي سأبدأُ بها حديثي.

- أنا محتاجك..

هكذا قلتُ حين سمعتُ صوت أنفاسها على الطرف
الآخر..

- إزيك يا مجدي!

- عامله إيه؟

- كويسة..

قالتها بوهنٍ ومرضى..

- مال صوتك؟

- مفيش بس شوية إرهاق.. عامل إيه؟

- أنا تمام..

ثم سكتت.. لم ترد عليّ بشيء.. تنحنحتُ وقلتُ:

- بصي.. أنا.. أنا كنت.. قصدي الجرنال إداني أجازة ولو

إنتي محتجاني في حاجة أنا تحت أمرك..

- لا.. أنا كويسة.. خليك!

سكبت جردلاً مليئاً بالثلج فوق وجهي الذي التهاب

حين قالت ذلك.

- أنا جايلك النهاردة..

لم يعد هناك بدٌّ من الاعتراف بحاجتي لها.. أنهيت

المكالمة ثم أعددتُ حقيبتني بسرعة..

يقرع شخصٌ ما الباب.. لماذا دونًا عن كل الأوقات

يأتيني- الآن مثل هذا الزائر.. وضعت حقيبتني جانبًا ودون

أن أسأل مَنْ الطارق فتحتُ.. رأيتُ شبح رجلٍ يقف

منتصبًا ويختفي بعيدًا عن ضوء مصباح الردهة.. قلتُ
بحنقٍ:

- مين؟

تحركّ إلى الأمام فدخل في دائرة الضوء.. أجب:

- إزيك يا أستاذ مجدي!

أعرفُ هذا الوجه لكن لا يحضرني الاسم.. أجبْتُ:

- أهلاً وسهلاً يا..

- أنا حسن.. مش فاكرني؟

قال ذلك حين لمح تأخري في نطق اسمه.. قلتُ:

- أكيد فاكرك..

ثم لاحظت أنه يمد لي يده ليصافحني.. صافحته في
حين عاد يقول:

- أنا جاي أشكرك على اللي عملته معايا..

- لا.. ولا يهملك.. ده شيء بسيط.. المهم والدك عامل
إيه؟!!

ثم تذكرتُ أنني أشرفتُ على دفنه بنفسي فاستدركتُ
بسرعةٍ:

- قصدي أكيد زارك في الحلم ولقيته في الجنة..

ابتسم.. قال ببطء:

- هو دلوقتي بين إيدين اللي خلقه..

تذكرتُ أني لم أدعه للدخول.. أفسحتُ له:

- آه.. آسف اتفضل ادخل.. وأخبارك إيه.. خرجت

إمتى؟

- من أسبوع..

قالها ثم ولج إلى الداخل.. جلس على مقعدٍ في
منتصف غرفة الجلوس ثم دار بعينه سريعاً فيها حتى
استقرَّ بصره على حقيبة سفري، بينما قلتُ:

- ألف مبروك..

لم أدر بعد ذلك ما أقول.. كنتُ مُتعبلاً وأرغب في
رحيله، لكن المفترض أن أجلس معه حتى يُنهي زيارته..
قررتُ أن أصبر معه عشر دقائق بعدها سوف أقوم
بطرده.. وكان هذا ما حدث.

وصلت إلى ولاء عصرًا.. استقبلتني أمام المنزل بابتسامةٍ
كئيبة:

- متوقعتش إنك هترجع..

رددت عليها وأنا أتفرس ملامحها التي غدت أكثر
شحوبًا:

- وأديني خيبت ظنك..

- رجعت ليه.. عاوز تنام معايا؟

قاسية معي أكثر من اللازم هذه المرة.. قلتُ:

- ظنك تاني مش في محله.. أنا رجعت لأني مش حاسس
بالحياة من غيرك..

ابتسمت ابتسامةً مثل إشراقة شمس نهار ربيعي
وجذبتني للداخل.. وهكذا أمضيتُ معها بقية اليوم دون
أن نتطرق للحديث من قريبٍ أو بعيدٍ حول طاهر.. هو في
أسوأ حال ولا داعي لتوقع الأحسن.. ودون أن أدخل عليه
أنا متأكد أنه الآن ممدد على الفراش يُحدق في الظلام
ويُجادل أشباحًا ومسوخًا غير موجودة.

ضرب المطر نافذة غرفة نومنا فاستيقظت ولاء مذعورةً..
توقفت نظراتها الزائغة على وجهي حين انتبهت لها..
ابتسمت لها ابتسامة طمأنينة:

- متخافيش.. ده المطر!

حاولت أن تتكلم لكن الكلام تجمّد في حلقها.. ناولتها
كوب ماء نهلت منه كمن لم تشرب منذ سنواتٍ.. وضعت
الكوب جانبًا وقد هدأت قليلًا.. بعد أن استجمعت عقلها
وملمت شتات نفسها حكّت لي أنها رأت حلمًا مُزعجًا.. رأت
طاهر يسيرُ محنيّ الظهر، وهو يرتدي جلبابًا من الخيش،
ويحملُ فوق ظهره شيطانًا يأكلُ من رأسه..

- أضغاث أحلام يا حبيتي و..

قطعت عبارتي صرخةً طاهر وهي تأتينا محمومةً..
نهضت ولاء من الفراش.. اعترضت:

- سيبك منه.. هيصرخ صرختين تلاته وبعدين سيهدأ..

لكنها لم تلتفت لكلامي وارتدت شالًا ثقيلًا واتجهت
للأسفل.. تتبعثها لا لشيء سوى أنني أخشى عليها..

استقبلتنا زمجرةٌ غاضبةٌ من طاهر.. ولاء نظرت من
فتحة الباب الصغيرة.. قالت:

- مش شيفاه..

أزحتها جانبًا ونظرتُ.. الغرفة تبتلعها ظلمةٌ سرمدية..
لا شك أنه يختبئ داخلها.. فتحت قفل الباب ودخلتُ..
دست في شيء لزجٍ قبل أن تنفجر قبلة من الروائح
الكريهة..

ضغطت زر النور.. كان حذائي مغروسًا وسط كتلة بنية
مائعة هي عبارة عن فضلات طاهر..

حركت قدمي باشمئزازٍ عدة مرات ووضعت يدي على
أنفي.

في ركن الغرفة كان طاهر يقفُ منتصبًا في مواجهة
الحائط وهو يُوليننا ظهره ويتطوح يمينًا ويسارًا، بينما
يخرج منه صوتٌ مثل أهازيج الناي.. نادته ولاء وهي
تقتربُ منه:

- طاهر.. إنت بخير؟

لم يُجبها.. اكتفى بأن طوّح جسده إلى الأمام قليلًا ثم
إلى الوراء.. ثم التفت نحونا فجأةً..
تجمّدت في مكاني..

كان وجهه قد استحال إلى لوحةٍ بشعةٍ من الرعب
وقد انقلبت عيناه بيضاوين مشقوقتين بالطول..

وثب نحوي بغتةً.. يرميني في الهواء بقوةٍ لم أعده
بها.. العالم يدورُ من حولي سريعًا دون أجد الفرصة
للصراخ الطبيعي.. من حقي أن أصرخ ولو مرة..

ارتطمت بالجدار قبل أن تسقط لوحةً زيتيةً فوق
رأسي.. ستار رمادي يهبط أمامي، ووعي ينسحب تدريجيًا
مع خيطٍ من الدماء الدافئة يسيلُ من جرح جبهتي..
طاهر يقتربُ مني بوحشية ضبعٍ على وشك تمزيق
فريسته..

لمحتُ سكينًا في يده حين لمع نصلها الحاد.. ما زال
الستار الرمادي يهبط.. يا إلهي.. لماذا لا ينتهي سريعًا.. لا
أرغب أن أكون واعيًا حين تخترق السكين معدتي أو تقطع
عنقي.

ولاء تعترض طريق طاهر وتقف حائلًا بيني وبينه.. لا..
ارجعي.. إنه ليس أخاكي..

طاهر يضربُ رأسها بقبضته.. تراجعت للوراء وهي
تضع يدها على صدغها، لكنها ما زالت تدافعُ عني
بجسدها.. سقط عنها الشال أمامي.. حاولت أن أقفزَ
عليه.. عجزتُ.. بالكاد رفعت يدي.. بصعوبةٍ نطقت:

- اهربي!

لم تستجب لرجائي.. قالت بتوسلٍ وهي تمدُّ يدها
للحيلولة بيني وبين طاهر:

- ارجع يا طاهر!

أجابها بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- طاهر مين؟

ثم أمعن النظر فيها طويلاً وزمجر، ثم ركل مقعداً
في اتجاهها، فانحنت لتتفاداه وهي تحمي وجهها بيدها،
وقبل أن تعودَ لوضعها كان قد انقضَّ عليها ولكمها بقسوةٍ
في معدتها جعلها تطيرُ وتصطدم بالحائط.. انفجرت الدماء
من فمها وتلوت على الأرض..

انحنى نحوها ثم قبض على شعرها ورفعها بقسوةٍ..
حركت رأسها بوهنٍ في محاولةٍ يائسةٍ للإفلات منه.. ضرب
رأسها في الأرض بقوةٍ ساحقةٍ كمن يُحاول تحطيم جوزةٍ
هند.. ندَّت منها آهةً مكتومةً مع صوت هدير عظامها..
سكن جسدها تماماً ثم راحت بركة صغيرة من الدماء
القانية تتوسع من حولها ببطء.. شديد.

تابعت طاهر وهو يقتربُ مني مزمجرًا كالمسعود..

الموت يبدو كريهًا الآن..

ثم وبلا إنذار سقط طاهر على الأرض وقد أصيب
بتشنجاتٍ عنيفةٍ فبدأ أشبه بحيوانٍ مفترسٍ على وشك
الاحتضار..

بعد دقائق كنتُ قد استعدت السيطرة على نفسي..
نهضت مترنحًا باتجاه ولاء.. رأيتها شاحبة وتبدو في النزاع
الأخير..

في تلك اللحظة دخلت راجية.. هالها ما حدث
وتجمّدت في مكانها مثل صنم.. نظرت إلى طاهر الذي
رقد مفتوح العينين وقد غرق في بحرٍ من العرق الأسود..
اقتربت مرتعشةً ومدّت يدها تتحسس وجه ولاء.. بكت
في مرارة .. صرخت:

- ااااااه..

ثم هوت فاقدة الوعي.

لم أنتظر أكثر من ذلك.. حملت ولاء وذهبت بها إلى
المستشفى.. تم وضعها في غرفة العناية المركزة بين الحياة
والموت، وكلتا الكلمتين (الحياة والموت) لا تعنيان لي أكثر
من مجرد حروف منطوقة.

أضيت اليوم كله بجوار غرفتها حيث تم منع
الدخول إليها..

في اليوم التالي وبمساعدة عباس صرتُ قادرًا على
رؤيتها.. ارتديتُ كمامة على فمي وجلستُ بجوارها..
كانت مستلقيةً في سريرٍ بينما قناع الأكسجين يُغطي
نصف وجهها، وقد اتصل بجسدها كل أنواع المعدات
والأجهزة الطبية الغريبة التي لا أعرف مُسمّى لها..

تأملتُ وجهها.. ربما كانت هذه المرة الأولى التي
أتأملها فيها.. قسماتها تبدو مختلفةً وعليها سكينَةٌ وسلام
لم أعهدهما من قبل..

دخل عباس وقال بتوترٍ:

- قدامك خمس دقائق..

ثم خرج وتركنا.

أمسكت يدها.. باردة لكنها ملأت قلبي دفنًا:

- ولاء!

وكانها سمعتني فتحت عينيها بصعوبةٍ.. فرحت كما لم
أفرح من قبل.. قلتُ بلهفةٍ:

- حمدًا لله على سلامتكَ يا حبيبتي..

- أنا فين؟

قالت وعيناها تزيغان.. أجبتها:

- متقلقيش هتكوني كويسة..

ابتسمت بصعوبة:

- بجد..؟

- طبعًا.. إنتي عارفاني مبعرفش أكذب..

- حسّه أن..

وبترت كلامها ثم أدارت وجهها في الأرجاء قبل أن

تستطرد بأسف:

- نهايتي هتكون هنا..

- بطلي تخاريف.. إنتي زي الفل..

قلتها بصوتٍ طبيعي محاولاً إخفاء الألم الذي اعتصر

صدري.. رفعت يدها بصعوبةٍ نحو وجهي تحاول أن

تلمسه لكن أصابعها ارتعشت قبل تسقط يدها فجأةً..

تناولتها بحنانٍ ثم وضعتها على خدي.. ابتسمت بوهن:

- طول عمرك أبيض من جوّه..

أحسستُ بترقرق الدموع في عينيَّ.. دنوتُ بوجهي
منها وقبّلتها:

- وإنّتي طول عمرك قمر..

- طاهر عامل إيه؟

- محبوس في البيت..

- إوعدي إنك هتنقذه!

عادت تقول بوهنٍ حين لم أجبها:

- إوعدي يا مجدي!

أومأت لها برأسي.. ابتسمتُ مستريحةً.. حاولتُ أن
تتكلم من جديدٍ.. توقّف الكلام في حلقها.. انتابتها رعشةٌ
قويةٌ ثم سقط رأسها إلى الورااء وتركتني وحيداً.. إلى الأبد.

الفصلُ التَّاسِعُ

تابعتُ بمرارةٍ كالعَلَقِمِ وهم يضعون ولاء في القبر ثم
يُغلقونه عليها..

لن أراها بعد الآن.. كل ضحكاتهما، أمانيتها، وأحلامها،
اختفت وابتلعها هذا المكانُ الضيقُ المُظلم..

تمنيتُ أن أعودَ بها وأدفنها في القاهرة بعيدًا عن هذه
القرية اللعينة.. وضعتُ يدي على وجهي وضغطتُ حتى
كدت أن أسحقه..

فجأةً أحسستُ بأمرٍ غريبٍ يحدثُ.. رفعت وجهي
نحو الأعلى.. كانت الشمس تتحركُ من مكانها ثم تختفي
وراء غيمةٍ سوداء تُشبه رأس الشيطان، فحلَّ الظلام بغتةً
وهبط علينا مثل الموت..

توجهت الأبصارُ نحو السماء التي اتخذت شكلاً مُرعباً،
وساد الهلعُ والفوضى أرض المقابر..

أشعل البعضُ كشافاتٍ صغيرةً فبددت جزءاً من
الظلام..

تحركَ غطاءُ مقبرةٍ ولاء وانزاح جانباً.. من داخل القبر
بدا يتصاعدُ ضبابٌ أبيض.. خرجت يدٌ من وسط الضباب
فصرخ الناس وفرّوا هاربين وهم يُحوقلون ويُسملون..

ولاء تخرجُ من القبر وهي ملفوفةٌ في الكفن الأبيض..
ازداد الضبابُ وصار أكثر كثافةً حتى اختفت ولاء داخله..
درتُ حول نفسي لأكتشفَ أني ضائعٌ ووحيدٌ.. صوتٌ
فحيحٍ غاضبٍ يأتيني من كل مكان.. ناديتُ:

- ولاء!

لا إجابة..

شعرتُ بشيء يتسلقُ قدمي.. نظرتُ إلى الأسفل.. نباتٌ
غريبٌ التّفّ حول ساقي مثل الثعبان.. منعني تمامًا
من الحركة.. حاولتُ أن أنزعه.. أشواكه أدمت يدي.. ثم
قبضتُ يدٌ قاسيةً على يدي.. وجه ولاء الميت يبرزُ من
وسط الضباب وتُحدق بي بعينين بيضاوين مائعتين.. رددتُ
في هلعٍ:

- ولاء!

دارت من حولي مثل مفتريسٍ يتخير موضع التهام
فريسته.. النبات الغريب يزدادُ ويلتفُّ حول كامل
جسدي.. صرتُ مغرورًا في الأرض عاجزًا عن تحريك أي
عضلةٍ لديّ..

ولاء تُمسك برأسي.. أرى مخالِبَ سوداء لها.. تخذشُ
رأسي ومُزق جزءًا من وجهي ثم تخنقني بلا رحمةٍ..
أنفاسي تضيعُ بسرعةٍ.. الألم حاد في صدري.. أشعرُ أنني
أحترقُ دون لهيبٍ أو نارٍ.. حاولتُ أن أصرخَ.. أسقطتني
على الأرض وهي تُلصق وجهها بوجهي.. مخيفةً.. حاولتُ
أن أصرخَ.. فشلتُ.. نجحتُ.. صرختُ.

رنيُّ الهاتف انتزعني من هلوستي..

أجفلتُ للحظةٍ حتى استوعبت.. تفحّصت رقم
المتصل.. لا أعرفه.. وضعت طرف الهاتف على أذني:

- نعم!

- إزيك يا أستاذ مجدي!

صوتُ رجلٍ على الطرفِ الآخر.. يبدو لي مألوفًا بعض الشيء لكن لا أميّزه:

- مين معايا؟

- أنا حسن.. أبارك إيه؟

يُخبرني أنه يشعرُ بالقلق حيالي.. أجبته باقتضابٍ:

- أنا كويس!

لاحظ بالتأكيد نبرة صوتي وطريقتي في الحديث لذا سأل:

- خير يا أستاذ مجدي.. فيه حاجة؟

لم أكن أرغبُ في الاستطراد معه، لكنني وجدتُ نفسي أخبره بأن زوجتي ماتت.. واساني بسرعةٍ، ثم أنهى المكالمة بسرعةٍ على عكس ما توقعْتُ.. أزحته من تفكيرِي، ثم انتظرتُ حتى انتهت عملية الدفن وراح المشيعون ينسلُّون واحدًا تلو الآخر..

اتخذتُ لنفسي طريقًا مختلفًا وسرتُ فيه.. بعد أن خرجتُ من المقابر شعرتُ بألمٍ في رأسي.. تحسستُ رأسي مُستكشفًا.. آثار مخالبٍ محفورةٍ فيها.. ثم هوى قلبي وسقط في حفرةٍ باردةٍ.

- شدَّ حيلَكَ يا أستاذ مجدي!

فُوجئتُ بحسن أمامي في اليوم الأخير للعزاء وهو يقولُ ذلك.. لا أعرفُ كيف اهتدى إلى عنواني لكن ببعض التخمين قد يكون توصلَ إليه من الجريدة التي أعمل بها.. على الرغم من عدم معرفتي الوثيقة به إلا أنني أحسستُ ببعض الغبطة لوجوده..

ظلَّ بجواري حتى انتهى اليوم واستعدَّ للرحيل.. كانت راجية قد اشتدَّ مرضُها وأصيبت ببوادر انهيارٍ عصبي وتم حجزُها في المستشفى، لذا طلبتُ منه المبيت معي.. رفض في البداية وأخبرني أن لديه مشاغل كثيرة.. صممتُ على موقفي ورفضتُ أن أحيده عنه فاستجاب.. سرتُ معه وقلبي مثقلٌ بالهمِّ والغمِّ.

كانت صرخة طاهر التي جلجلت هي أول ما استقبلنا.. لم أخف أو حتى يطرّف رمشٌ في جفني، بينما التوترُ أصاب حسن، ولمحتُ السؤال على طرف لسانه، لكنه ألجمه والتزم حُسن الأدب..

دوّت صرخةٌ أخرى أجفل لها حسن.. قلتُ وأنا أضع يدي على كتفه:

- ده طاهر..

ثم حكيتُ له باختصارٍ شديدٍ ما جرى له.. طلب أن يرى طاهر.. وافقتُ على مريضٍ..

أدخلته على طاهر الذي كان مُستلقياً على الأرض مثل الأموات.. راح حسن يتأمل الرسم الموجود على الحائط.. سألني:

- هو اللي رسم ده؟

أومأتُ برأسي.. تجهّم وجهه وعاد يتفحص الرسم مرةً أخرى:

- ده رسم شيطاني!

قالها في وجهي فشعرتُ أنه لكمني في معدتي.. استطرد قائلاً:

- والدي كانت له كرامات وعارف في أمور الجن.. أنا عندي خبرة لا بأس بها.

جذب كلامه اهتمامي.. عاد يقول:

- هو بيحاول يبلغكم رسالة..

أخبرته بشأن الكلمة (برهوت) التي دوّت في عقلي حين شاهدتُ الرسمة للمرة الأولى.. نظرتُ لي وقد انقلبت ملامحه إلى الجديدة الكاملة:

- عاوزك تحكي لي كل حاجة وبالتفصيل الممل!

دهشتُ جدًّا للتغيير الذي طرأ عليه.. لكن وكما يُقال في الأمثال حكيثٌ له من طق طق إلى سلامو عليكو.. كان وجهه يمتقعُ تارةً ويحمرُّ تارةً أخرى وهو يستمعُ لما أقولُ صامتًا ودون أن يُبدي أي ملاحظة..

بعد أن انتهيتُ من كلامي أشعل حسن بعض البخور وراح يُردد ترنيمةً غريبةً.. مع كل كلمةٍ كان ينطقُ بها كان طاهر ينتفضُ، ثم انتصب فجأةً واقفًا بلا حراكٍ.

- برهوت!

نطق بها حسن في وجه طاهر الذي ظلَّ مُتصلبًا مثل تمثالٍ حجري.. لم يبدو أنه سمعه.. نظرتُ في عينيه فرأيتُ فراغًا وغيابًا.. مددتُ يدي وحاولتُ أن أحركه من مكانه.. كان راسحًا حتى أنني عجزتُ عن تحريكه قيد أملة، كأن هناك قوةً جبارةً تُثبتته في موضعه.

فجأةً التفت نحوِي.. ضاعت نظرةُ الفراغ وحلت محلها نظرةٌ أخرى مُخيفة.. خرجت منه حشرةٌ طويلةٌ ميّزت منها بضعَ كلماتٍ بلا معنى.. للحظةٍ ذهب بي الظن أنه يُحدِّث شخصًا ما يقفُ خلفي مباشرةً.. رأيتُ

الذعر يجري في ملامح حسن.. اهتزت الجدران وظننتُ
أن السقف سينطبقُ فوقنا ثم تهشم كل زجاج النوافذ
الموجود في الغرفة كأن يدًا خفيَّةً حطَّمته في آنٍ واحدٍ،
ودخلت ريحٌ قويةٌ أطارت كل ما فوق الأرض..

حاولتُ أن أحمي وجهي بيدي من الزجاج المتطاير..
شعرتُ بعشراتِ الوخزات في يدي والزجاج ينغمسُ بها..
حين سكن الأمر رفعتُ وجهي أرى النتيجة.. كان
المشهدُ مُرعبًا.. ما زال طاهر في منتصف الغرفة دون أن
يتسنَّه شيء، عدا ذلك كل شيء كان مُدمرًا.

أخبرني حسن أنه لم ير مثل ذلك من قبل.. صحيح
أنه أشرف مع والده من قبل على علاج عشراتٍ من
حالات لبس الجن إلا أن ما شاهده يفوق قدرات الجن
أو القرين.

- اللي حضّر العفريت يصرفه!

هكذا قال حسن.. كان لا بد من زيارةٍ للسيناوي
حتى نعرفَ الشيء الذي يُسيطر على طاهر.. لذا وحين
كان نورُ النهار على وشك الانطفاء انطلقتُ بالسيارة إلى

منزل السيناوي بينما ظل حسن مع طاهر في محاولةٍ منه
لتحصين المنزل وغسله بالماء والملح..

عندما وصلتُ للسيناوي أوقفتُ السيارة على مسافةٍ
غير بعيدةٍ من المنزل ثم ترجّلت منها غير عابئٍ بنباحِ
الكلاب الضّالة..

ضممتُ معطفي درءًا لموجة البرد القارصة، ثم رفعتُ
الياقة وأحنيْتُ رأسي بينها متمسِّمًا بعض الدفاء..

طرقْتُ الباب ودون أن أنتظر ردًّا دفعته بقدمي
فاستجاب لي ثم دخلتُ.. وجدتُ السيناوي يجلسُ على
الأرض وأمامه كومة حطب مُشتعلة..

- تعال اتدفا!

قالها لي وهو يُلقي كومةً جديدةً من الحطب فوق
النار فتتوهجُ وتُلقى ظلالها على وجهه مثل شياطين
تتراقص..

- (برهوت)..

نطقْتُ بها في وجه السيناوي.. أو بالأحرى قذفتُه بها..
سعل لحظةً، ثم قال:

- مش فاهم!

وأشاح بوجهه عني.. وضعتُ يدي على كتفه:

- لا أنت عارف وإلا مكنتش حاولت تخبي وشك اللي
اصفر دلوقتي،

ثم أدرتُ وجهه نحوي.. كان بالفعل أصفر شاحبًا..
أردفتُ:

- أتكلم!

صمت طويلاً.. أخرجتُ سكينًا يبلغ طولها نصف
الذراع، حركتها أمامه فانحلت عقدة لسانه..

أخبرني وهو ينفخُ في النار حتى تتأجج، أن برهوت
هي مكانٌ لمقبرةٍ في التل الأحمر كانت ملكًا لأحد كهنة
الفرعون في دولة مصر القديمة، وأن الكاهن استعان بالجن
لبنائها من أجل إخفاء كنوزه، وعندما مات الكاهن
استوطن أتباعه من الجن البئر؛ ولهذا السبب أطلق عليها
"برهوت" ومعناها (مملكة الجن)..

- عملت إيه بالضبط في طاهر؟

أخبرني بأنه عقد عليه عقدة سحرٍ أسود لتحضير
أحد ملوك الجن ويُدعى (سوميا)، ولأن الأمر لا يخلو
من تمرد سوميا، فإن السيطرة عليه لا بد أن تكون بيد
أحد بني الإنس، وفي حالة طاهر كانت الوحيدة القادرة

على السيطرة عليه وإخراجه هي دلال.. نعم دلال.. طاهر
أحضر خصلةً من شعرها وجعلها العُنصر المُسيطر دون أن
تعلم.. وحين ماتت تحرَّرَ سوميا واستحوذ على طاهر، ثم
ختم السينائي كلامه:

- (سوميا) مكانه هناك.. في برهوت..

- عاوزك تيجي تصرفه!

- محدش يقدر يصرف سوميا.. وطاهر لازم يموت..

ثم أطلق ضحكةً عاليةً..

- بتخاف من الموت؟

قالها السينائي وهو يسكبُ قليلاً من الجاز على النار
فيزداد حجمها ولهيبها..

- آخر حاجة أخاف منها..

- طيب بتخاف من إيه؟

- أنا عايش من غير خوف..

- لكن مفيش إنسان يقدر يعيش من غير خوف..
الخوف والطمع هما اللي اتبنت عليه الدنيا..

- الدنيا اتبنت على الحب..

ضحك:

- الحب.. الحب ده المعنى المهذب للجنس..

هممتُ بالنهوض لأنهي هذا الجدل السخيف..
استدرك قائلاً:

- لو حاولت تنقذ طاهر هيلبسك مكانه..

- وعد ولازم أوفي به..

تشوّهت قسماته فجأةً وصرخ:

- اللي بتفكر فيه هيكون معاه نهايتي قبل نهايتك..

لم أعبأ بكلامه.. هممتُ بالخروج.. قبضتان من حديدٍ
أحاطتا بعنقي.. جحظت عيناى بينما هو يعتصرُ عنقي
الذي راح يتداعى بسرعةٍ.. الموتُ يقتربُ منى سريعًا..
مددتُ يدي بصعوبةٍ مُحاولًا إزاحة اليد.. كان أمرًا
مُستحيلًا.. بقايا ذرات الأكسجين في رثتي أوشكت على
النفاد.. صراخ السيناوي المسعور يتردد:

- هقتلك وأدفنك هنا!

بآخر طاقتي عضضتُ ذراعه وجذبتُ أذنه بقوةٍ
فأرغمته على إفلاقي، وقبل أن يتمالك نفسه طوّحتُ

قدمي بين ساقيه فصرخ ثم سقط على الأرض، لكنه نهض سريعًا وعاد ينقضُّ عليَّ.. ألقىت نفسي بعيدًا عنه ثم دفعتُ الحطب المشتعل في اتجاهه.. حاول أن يتفاداه لكنه اصطدم في وجهه وأعمى عينه.. انزويت في أحد الأركان بينما راح يصرخُ وهو يضربُ بيده في كل اتجاه:

- |||||.....ه..

كان مثل ثورٍ هائجٍ فقد قائدَه فطاح يُدمر كلَّ ما حوله.. جاءت ضربته في إناء الجاز فأسقطه أرضًا وسرعان ما لامس النار التي هاجت بسرعةٍ وزحفت على الأرض والجدران مثل ثعبانٍ سامٍّ وأحاطت بالسيناوي..

فكَّرت أن أنقذه.. حقيقي فكرت.. لكن فجأةً انهار جزءٌ من السقف مُحدثًا ضجةً كبيرةً وظهرت فجوةٌ واسعةٌ مكانه بان من خلفها ظلامٌ الليلة ونجومها المتناثرة.. حدث كل ذلك في لحظاتٍ قليلةٍ.. تلمَّستُ لنفسي موطئًا للهربِ ثم هرولتُ بلا لحظة تفكيرٍ أخرى يُتابعني صراخ السيناوي والنيران تأكله بلا رحمةٍ..

وقفتُ من بعيدٍ أتابعُ الحريقَ.. بقي المنزلُ مشتعلًا والنار تعوي فيه مثل ذئبٍ متوحشةٍ.. كان بإمكانِ الأهالي إطفاء الحريق لكنهم اكتفوا بالنظر والمتابعة.. حين انتهى كلُّ شيءٍ انصرف الجميعُ إلى منازلهم وكأنَّ شيئًا لم يكن..

عدتُ للسيارةِ وانطلقتُ بها عائداً يُسابقني قمرُ الليل
الدموي، بينما تُطارِدني تلالٌ من الرمل الأحمر والأسود..
وأيضاً تلالٌ من الخوف.

الفصل العاشر

- حسن!

ناديتُ على حسن حين دخلتُ المنزل الذي وجدته
يغرقُ في ظلامٍ دامسٍ وسكونٍ عجيبٍ.. لكن فجأةً اخترق
هذا السكونَ أنينٌ.. أنينٌ يتسرَّبُ من حجرةٍ طاهرٍ..
أحسستُ برجفةٍ مبهمَةٍ تستولي على روحي.. اقتربتُ
من بابِ الحجرة.. كان القفلُ الموضوعُ فوقها مُلقى على
الأرض وقد تم تحطيمُه.. فتحت البابَ برفقٍ.. في الداخل
اصطدمتُ عيناى بحسن وهو مُقيد على الأرض وقد
وضعت كمامةً فوق فمه.. جحظتُ عيناه بمجرد أن رأيتُ
وتمتم بكلامٍ مسعورٍ من وراء الكمامة لم يُمكنني تمييزُه
ولكن أمكنني فهمه.. فعلى امتداد بصري رأيتُ هتلر

يلوي ذراع طاهر ويقوده أمامه شاهراً طبنجة ضخمةً في وجهي.. بجوار هتلر كان يقفُ رجلٌ طويلُ الذقن مهلهلُ الثياب ويضع حول عنقه عشرات السبح والتعاويذ.. قال هتلر وهو يلهثُ:

- أنا مش عاوز أأذي حدّ.. أنا جيت معايا الشيخ.. هناخد طاهر يسحب لينا المقبرة.. آخذ نصيبي ومش هتشوفوني تاني..

تبادلْتُ النظر بينه وبين حسن وطاهر الذي كان مستسلماً ومُسْتَكِينًا تَمَامًا.. رفعت يدي وقلتُ:

- أنا مش هقاوم ولا حاجة.. إعمل اللي إنت عاوزه..

لَوَّح لي هتلر بالطبنجة وهو يجذبُ طاهر:

- قَدَّامي!

ثم هبطنا إلى النفق.. أشعل هتلر مصباحًا ضخماً وسرنا حتى وصلنا إلى مكان المقبرة التي اختفتُ، ثم أشار إلى مكانها مُخاطبًا الشيخ:

- كانت هنا..

أخرج الشيخُ من جيبه حجابًا ووضعهُ حول عنق طاهر.. ردَّد بعض التعاويذ من سحر الجان ثم دقَّ وتدًا في الأرض، وأشار لي بأن أحفر.. وبالفعلِ باشرتُ العمل..

وبعد ساعتين وبعد أن أوشكتُ على السقوط تعبًا.. صرخ
طاهر وقد انقلبت ملامحُه:

- أنا ملك الملوك!

تلوّن وجهُ الشيخ:

- الزم مكانك يا ملعون!

قالها بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ وهو ينثرُ مادةً أشبه بالحنّاء في
وجه طاهر.. قال هتلىر وهو يضعُ يده على كتف طاهر:
- إهدى يا طاهر.. أنا..

وقبل أن يكمل جملته قبض طاهر على عنقه ثم
رفعه عاليًا بيدٍ واحدةٍ.. تراجع الشيخُ للوراء وهو يُردد:
- يا حفيظ!

ثم طوّح طاهر بهتلىر في الهواء مثل دميةٍ صغيرةٍ
فارتطم بالجدارِ وهوى فاقد الوعي بعدما تهشّم المصباحُ
بجواره وابتلعنا الظلام..

رحتُ أبحثُ في الظلمة الحالكةِ بدافعٍ غريزي وأرهفُ
سمعي إلى صوت الخطوات التي تتحرّكُ ثقيلةً وبطيئةً،
وما هي إلا لحظاتٌ حتى سمعتُ حشرجةً من الشيخ،

ثم صوت كسر عنقٍ أعقبته آهةً مكتومةً وسقوط جسدٍ
على الأرض..

سمعتُ صوتًا خافتًا غليظًا:

- مجدي!

حاولتُ الاستعانة بذاكرتي وبدأتُ أسيرُ في النفق باتجاه
الخروج.. وما أن شرعتُ في اعتلاء الدرج حتى اهتزتُ
الأرضُ من تحتي وكدتُ أسقط.. تهاوت الأعمدة الخشبية
التي تحفظ النفق من الانهيار واختلط الغبارُ بالصخور
التي راحت تسقطُ.. بصعوبةٍ شديدةٍ أكملتُ الصعود قبل
أن يحدثَ الانهيارُ التام..

لم أكد أصبح في الخارج حتى انفجرت كومةُ غبار من
تحت الأرض وتهاوى النفقُ.. وكل مَنْ داخله قد مات..
حتى طاهر.. الآن انتهى الأمرُ.. عُدتُ إلى حسن ثم فككتُ
وثاقه..

لحظةً وسمعتُ حركةً من خلفي.. التفتُ نحوها
فرايتُ عينيّن تنظران لي مع ابتسامةٍ ميتهٍ.. عينان لشخصٍ
يُدعى طاهر!

لم يكن هناك تفسيرٌ لنجاة طاهر من الانهيار سوى أن الجن هو مَنْ أخرجته.. ابتعدتُ عنه أنا وحسن، ثم أخبرتُ هذا الأخير بكلِّ ما جرى بيني وبين السيناوي وما دار بخصوص برهوت وملك الجن سوميا.. قال إنه كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل، ثم أخبرني أنه يحتاجُ أن يعودَ إلى مكتبة والده للحصولِ على الأدوات والكتب اللازمة لمواجهة مخلوقٍ يمثل تلك القوة..

أعرتَه سيارتي فانطلق بها دون تأخير.. تأكدتُ من إحكام القفلِ على بابِ طاهر، ثم قضيتُ بقية الوقت أتحاوَرُ مع نفسي..

بعد مرور بضع ساعاتٍ مرَّت كالدهر، جاء حسن وهو يحملُ جوالاً كبيراً مليئاً بكتب والده الخاصة بالسحر وتحضير الجن..

أفرغ محتويات الجوال على الأرض، ثم انتقى منها كتاباً ضخماً مصنوعاً من الجلد ومكتوباً بحروفٍ من الدم.. قرأتُ اسم الكتاب: "شمس المعارف ولطائف العوارف"..

بحثنا عن أي معلومةٍ حول سوميا.. وبالفعلِ وجدنا له صورةً تخيليةً مُرعبةً مع كلامٍ أكثر رعباً..

بعد بحثٍ وتمحيصٍ اكتشفنا طريقةً وحيدةً لتحرير
طاهر.. تلك الطريقة هي أن نقتل ملك الجن.. سوميا.



الفصل الحادي عشر

لقتل مخلوقٍ من الجن نحتاجُ إلى ثلاثة أشياء:

- قرن شيطان..

- دماء بشرية..

- عين ميت..

كان حسن يملك قرنَ شيطانٍ، وهو يُشبهه إلى حدٍّ كبيرٍ
قرنَ جدِّي عجوزٍ، وإن كان ذا حجمٍ أصغرٍ وأطولٍ، وله
رهبةٌ عجيبةٌ في النفس بمجرد أن تراه.. تبقى لدينا غرَّضان
لنحصلَ عليهما.. الدماء، والعين.. وللحصولِ عليهما كان لا
بد من الذهابِ إلى مكانٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ.. إلى عبَّاس.

وهكذا قفزتُ على عجلة قيادة السيارة وانطلقتُ بها
برفقةِ حسنِ نطوي الطريقِ..

تركتُ حسن في السيارةِ ودخلتُ المستشفى.. شعرتُ
بانقباضةٍ في صدري وبيدٍ باردةٍ تعصرُ قلبي حينما
خطوتُ داخلها من جديد..

في الاستقبالِ لمحتُ مُمْرَضَةً منتفخةَ الجفنينِ، تُمسكُ
كوبَ قهوةٍ وتُشاهدُ برنامجَ مسابقاتٍ غنائيةً بكلِّ اهتمامٍ
وتركيزٍ.. لم تشعِرِ بي حين اقتربتُ منها.. لم يبدو أنها
سمعتني حين ألقىتُ عليها السلام.. رغبتُ في أن أهشُم
التلفازَ فوق رأسِها لولا أن قالت دون أن تنظرَ نحوي:

- أي خدمة يا أستاذ؟

سألتهَا عن عباس.. أخبرتني بأنه في عنبرِ العظام، ثم
أشارت للمصعد:

- خد الأسانسير عشان السلام كثيرة!

- ألف شكر..

رشفتُ من كوبِ القهوة ونظرتُ نحوي أخيراً:

- فائز إن شاء الله..

قالتها فلم أفهم معناها.. قلتُ مستفسراً:

- أفندم!

أشارت لشاشة التلفاز حيث شاب يبدو خليجياً يتغنى
بواحدةٍ من روائع أم كلثوم، وقالت:

- صوته حلو قوي..

- آه.. تمام.. تمام.

وتركتها قبل أن تتلقفني في حوارٍ أو ثرثرةٍ لا طائل
منها.. ركبْتُ المصعدَ متمنياً أن أجدَ عباس.. كان المصعدُ
يُحدث صريراً حاداً وهو يصعدُ بي.. لو تعطلَّ الآن أو
سقط بي فلن أتعجب..

سفارةٌ قصيرةٌ بعدها فُتِحَ باب المصعد وشاهدتُ لافتةً
من النيون كُتِبَ عليها باللون الأسود: (عنبر العظام)..
خرجتُ من المصعد وسرتُ في ردهةِ العنبر التي تناثرتُ
فيها قطعٌ من مُعدَّاتِ المستشفى..

دخلتُ العنبرَ متخطياً باباً كبيراً من الزجاج الأزرق.. في
الداخل كانت الرائحةُ خليطاً من أدويةِ التعقيم والكحول،
كذلك تراصت سرائرُ المرضى تتخللها أجهزةُ تنفُّسٍ ومساندُ
معدنيةٌ، بالإضافة إلى أعمدة جلوكوز طويلة..

لمحتُ شاباً متوسط العمر، تُحيط الضماداتُ برأسه
والجبسُ الأبيضُ بساقَيْهِ ويديهِ.. شعرتُ نحوه بالشفقةِ

حين رأيتُ الدموع في عينيه تسيلُ بصمتٍ، ثم رأيت
عباس.

- مجدي باشا!

- عاوزك في موضوع مهم..

كان هذا هو كل الحوار الذي دار بيني وبين عباس في
العبر قبل أن أذهب معه لِمَكَانٍ نستطيع أن نتحدثَ فيه
بحريةٍ كما طلبتُ منه في نهاية كلامي.

أخبرته بما أريد.. قال وهو يُحاول تقييمي بنظرةٍ
فاحصةٍ:

- طلبك مش عندي!

كنتُ أتوقع ذلك.. لكن عينيه تفضحان فسادَه.. قلتُ
وأنا أبرز له رزمة نقودٍ من فئة الخمسين:

- حتى ولو عشان دول..؟

راح يُحدِّق في المبلغ:

- دول كام؟

- ألفين..

- خليهم ٥!

- ٢ ونص..

- أربعة..

- ثلاثه..

أرجح رأسه ببطء، ثم قال:

- اتفقنا يا قائد..

ثم توجَّهنا إلى المشرحة..

أمام بابها المعدني والذي يشعُّ برودةً توقَّفنا..

ابتسم عباس، ثم أخرج مفتاحًا نحاسيًا أداره في القفل:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

وهكذا صرنا في الداخل..

وفي الداخل تراصت مناظير معدنية تعلوها جثثُ

الأموات..

خلف المناظير كانت تُوجد ثلاجة حفظ الموتى.. عرفتُها

بسبب رؤيتها في أكثر من فيلم.. في الواقع كانت أضخم

وأكثر رهبةً مما كنتُ أتخيل..

أشعلتُ سيجارةً وأخذتُ منها نفسًا عميقًا، فالتفت
نحوي عباس بغضبٍ:

- مش تقول إن معاك سجاير!

ثم ضحك وسحب من علبتي سيجارة لنفسه وأشعلها:

- تفتكر الأموات بيتأذوا من ريحة السجاير؟

قالها بسخرية.. تذكرت فيديو تم تداوله على مواقع
التواصل الاجتماعي يُظهر أمناء شرطة يعبثون بإحدى
الجثث ويضع أحدهم السيجارة في فمها.. أثار هذا
الفيديو موجة غضبٍ في نفوس المصريين.. فقدسية الموت
عندنا ورثناها من أجدادنا الفراعنة.. قلتُ:

- العلم عند الله..

قلتُها فابتسم، ثم فتح الثلاجة وأخرج من داخلها
جثةً لامرأةٍ تبدو حديثة الوفاة..

كانت تبدو رقيقةً وملامحها تحمل كل سلام الدنيا..
قلتُ وأنا أتأمل في الوجه الميت:

- مبلش دي.. شوف جثة تانية!

- دي جاية في حادثة وأي شيء مفقود منها محدش
هيدقق فيه، غير كدا لغاية دلوقتي ملقناش ليها

أهل.. يعني دي تاخد منها اللى إنت عاوزه وإنت مطمئن.

ثم أخرج مبضعًا من جيبٍ معطفه، وأكمل:

- طيب وحياة ولادي، الجثة دي لو تقدر تتكلم كانت شكرتني على اللي هعمله دلوقتي..

ثم غرز مبضعه في العين اليمنى فانتزعها تارگًا خلفها فجوةً واسعةً مُخيفةً أحالت الوجه الملائكي إلى وجهٍ شيطان.. استطرد:

- شايف بقت وحشه إزاي.. كدا تضمن إن مفيش ابن حرام يبجي ينطّ فوقها..

كان معنى كلامه واضحًا جدًّا، لكني قلتُ:

- مش فاهم!

- يغتصبها يعني..

ابتلعتُ ريقِي بصعوبةٍ:

- إنت بتتكلم جد؟

تحسّس صدر الجثة بتلذذٍ، ثم ضحك بسخافةٍ:

- وجد الجد كمان، وحياة أمي في تُربتها.. طيب تحب أحكي ليك عن اللي أفضع من كدا!

أشرت له بأن يصمت وأن يُكمل ما يفعله.. لم أعد
أرغب في سماع أو معرفة المزيد..

استجاب لإشارتي ووضع العين داخل كيسٍ شفافٍ، ثم
عاد وأخرج العين الثانية ووضعها مثل الأولى، ثمناولهما
لي:

- اتفضل يا سيدي!

تناولتهما منه مرتعشًا.. أخرجتُ حافظتي وأعطيته ما
اتفقنا عليه من نقودٍ.. أحصاها في البداية بشكٍّ وحين
تأكد من كون المبلغ صحيحًا، مال على الجثة وقبَّلها من
فمها:

- ألف شكر يا هانم!

ثم أنهى جملته بضحكةٍ عاليةٍ تلقفتها في أذني فهرولتُ
مسرعًا مثل المجنون.

..٢ ..٣ ..٤

رحتُ أراقبُ الأرقامَ المضيئةَ داخل الأسانسير وأعد
معها الأدوار التي أهبطها.. ضرباتٌ قلبي كانت أعلى من

صوت صفير فتح باب الأسانسير حين خرجت.. سرْتُ في ردهة الاستقبال وقد وجدت هدوءًا عجيبيًا وغير طبيعي.. على امتداد بصري شاهدتُ مكان موظفة الاستقبال خاويًا، بينما التلفاز ما زال يعرض برنامج المسابقات السخيف..

ألقيت ذلك خلف ظهري وتوجهت للخروج.. فجأة أوصد الباب أمامي بعنفٍ.. ارتعشت الأضواء للحظاتٍ ثم انطفأت.. غرقتُ في ظلامٍ لا يُبدده غير ضوءٍ شاحبٍ تسلل من تحت عقب الباب.. من جديدٍ سمعتُ صوتَ التلفاز الذي أضيئت شاشته وامتلاً بخطوطٍ بيضاء غير واضحة.. راحت حركة الخطوط تنتظم ثم تظهَرُ صورةً مشوشةً.. اقتربتُ من التلفاز بحذرٍ.. شاهدتُ نفسي على شاشته برفقة عباس وأمامنا جثة الفتاة.. عباس ينتزع العينين بينما أنا أقف متوترًا.. كان الأمر أشبه بمثابة تسجيل كاميرا مراقبة.. أي لعنة أو أي سحرٍ شيطاني يجري أمامي.. ثم حدث ما لم أتخيله أو ما لم يحدث في الحقيقة.. شاهدتُ نفسي وأنا أجثم فوق الجثة ثم أمارسُ معها الجنس القاسي وسط ضحكاتِ عباس المجنونة التي راح صداها يترددُ بلا انقطاعٍ، ثم اتسعت من حولي وابتلعتني داخلها..

التفتُ خلفي لأجدَ ظلَ موظفةِ الاستقبالِ يدنو مني
بطيءٍ.. حركتها كانت آليَّةً ومرعبةً.. أضأتُ نورَ كَشَافٍ
هاتفي في وجهها.. عينان من الجحيم هما ما ظهرا.. قبل
أن تُدركني هرولتُ باتجاه باب الخروج.. لا أعرفُ كيف
صرتُ بالخارج.. فقط أَلقيتُ نفسي بجوارِ حَسَنٍ وأنا
ألهتُ.. كان الرعبُ يغمريني وكنْتُ غير قادرٍ على الحديث..
سألني عن سببِ تأخيري وعمَّا حدث حين أدرتُ مُحركَ
السيارة وانطلقتُ بها وسط الشوارع في الليل المظلم.. لم
أجبه واكتفيتُ بمحاولةِ التقاطِ أنفاسي ثم رفعتُ الكيسَ
الشفافَ وما يحويه من عينيْن تسبحان في الدماء.. الغريبُ
أنه ولأول مرةٍ ألاحظُ أن العينيْن كانتا.. (زرقاوين).

زرقاء..

زرقاء هي السماء وأمواجُ البحر التي تتكسَّر على
صخور شاطئِ إسكندرية حين سرتُ بجوارِ ولاء وأنا أحيطُ
خَصْرَها بذراعي، بينما هي ترنو برأسِها على كتفي..

إنها ليلةُ عيد الربيع منذ عامٍ مضى، وصوتُ سعادٍ
حسني والدينا ربيع والجو بديع يُعطر الحياة مثلما
تُعطرها الأزهارُ والورودُ الموسمية..

أطلقت ولاء ضحكةً ماجنةً أسكرتها زجاجةُ خمرٍ ثم
قبَّلتنِي على خدِّي دون أن تهتم بنظراتِ البشر الذين
يجلسون على كراسي ممشي البحر.

- عليًا النعمة إنتي مجنونة..

- دلعني!

قالتها وهي تحتضنني وتُحاول أن تُقبلني من جديد..
أبعدتُ وجهي عنها.. زوتُ ما بين حاجبيها بغضبٍ
مصطنعٍ:

- في البيت يا حبي..

أدارت رأسها:

- أنا عطشانة..

ثم ناولتني زجاجة البيرة الخضراء.. كانت فارغةً..
لم تترك فيها قطرةً واحدةً.. لهذا فعلت الشيء الطبيعي
وألقيتها بعيدًا على قارعة الطريق فتهدمت إلى شظايا
دهستها السيارات التي تأتي من خلفي مُسرعةً مع سبابٍ
من بعض السائقين.. ضحكنا حتى كدنا نسقطُ على
وجهينا:

- لسه عطشانة..

أشرت إلى الناحية الأخرى من حيث نقف.. إلى ملهى
ليلي زُيِّت واجهته بالأشجار والأنوار المضيئة مع لافتة
عملاقة لراقصة بيضاء مثل المهلبية وخلفها مطربٌ شعبي
يُشبه جعرانًا فرعونياً تم تحنيطه..

أمسكتُ يدها وعبرنا إليه.. أشرتُ بالتحية إلى البودي
جارد الذي يقفُ على المدخلِ ويشربُ من علبة بيرة..
فتح لنا البابَ بصمتٍ وفي أدبٍ جمٍّ.

في الداخلِ شعرتُ بالرضا على حُسن اختياري لهذا
المكان.. كان ملهى ليلياً داعراً كما يجب أن يكون.. يُمكنني
أن أضاجعَ ولاء فوق المائدة التي نجلسُ عليها دون أن
ينظرَ إلينا أحدٌ بوقاحةٍ أو يسألنا عما نفعل.

أتت إلينا نادلةٌ نصف عاريةٍ في العشرينيات من عمرها
ووضعت قائمة الطعام مع ابتسامةٍ ساحرةٍ مُصطنعةٍ:

- نورتِي يا هانم.. نورت يا باشا!

ثم أخرجت ورقةً لتُدون فيها طلباتنا.. وأيضاً طلبتُ
زجاجتي بيرة كفاتح شهيةٍ قبل الطعام..

لكزنتي ولاء في قدمي حين لمحتني أتفحصُ مؤخرَةَ
النادلة ذات الحجم العائلي..

بعد أن انتهينا من قضاء السهرة وكُنَّا على وشك
المغادرة قالت النادلَّةُ حين لمحتُ رزمة النقود التي
أخرجتها:

- ليك في اللعب يا باشا؟

وقبل أن يذهب تفكيري إلى اللعب في المناطق القذرة
استدركتُ بسرعة:

- فيه لعبة بوكر شغالة..

وأشارت إلى ممرِّ يقفُ عليه بودي جارد قصيرُ القامة
قبيح الملامح:

- هناك..

ملتُّ على ولاء:

- إيه رأيك؟

لثانية أو ثانيتين ترددت:

- وما له.. خرينا ننبسط!

- معاكي فلوس؟

- حاجة بسيطة..

- حلو قوي..

نهضتُ بصعوبةٍ من على المقعدِ بفعلِ كثرةِ ما أكلته
وشربته.. عبرت من أمام الحارس.. قلتُ مازحًا:

- هناك..

أوماً برأسه وهو يُشير نحو بابٍ سميكٍ:

- هناك..

ثم طرق البابَ ثلاثَ طرقاتٍ سريعةٍ.. فتحت البابَ
الراقصُ المهلبيُّ الموضوعُ صورتهَا في الخارجِ:

- قشدة..

قلتها داخل نفسي.. لو سمعتني ولاء لذبحتني.. حيَّتنا
الراقصُ بابتسامةٍ واسعةٍ وأشارت إلينا بالدخول.. كانت
الغرفةُ واسعةً، في آخرها يوجد بارٌّ صغيرٌ خلفه بارمان
عجوزٌ مُنشغلٌ في صبِّ كأسٍ شمبانيا.. تتوسط الغرفة
منضدةٌ تناثرت فوقها أوراقُ اللعب، وقد التفتُّ حولها
ثلاثة رجالٍ متجهمو الملامح..

اتخذتُ مكاني بعد أن حييت اللاعبين.. لم تفتني نظرة
رجلٍ ممصوص الجسد يُشبه الثعبان، ويرتدي عويناتٍ
عتيقةً لا تتناسبُ مع بدلته الحديثةِ باهظة الثمن.. خلط
الأوراقُ بخبرةٍ.. ناولني ورقتيْن.. من خلفي تقفُ ولاء

وتتابعُ باهتمامٍ.. في مواجهتي تقفُ الراقصة خلف صاحب
العوينات..

نظرتُ في الورقتين.. ولد مع آس.. ٢١..

غطيتهما ثم زدتُ الرهان.. دقيقة واحدة وكنتُ فائزاً
بالدور الأول.. أعلم أنه من المبكر الاحتفال بالمكسب،
لكنني لم أستطع مقاومة ضحكةٍ خرجتُ مني ساخرةً..

ابتسم الثعبانُ في تحدٍّ مباشرٍ لي..

أكملنا اللعب..

بعد ساعةٍ كاملةٍ كنتُ قد خسرتُ كل أموالِي..

مسحتُ العرق من على جبينِي، بينما نظر إليَّ الثعبانُ

وقال ببرودٍ:

- هارد لك!

ثم أشعل سيجارةً، سحب منها نفساً عميقاً..

- يلا بينا يا مجدي كفاية لعب!

قالتها ولاء وهي تجذُبني للخروج.. ابتسم الثعبانُ وهو

يتفحصُ جسدها في وقاحةٍ.

- لا..

قلتها بتحدُّ وأنا أسحبُ نفسي منها.. خلعتُ سترتي
ورميتهُ جانبًا.. فتحتُ حقيبة ولاء على الرغم من ممانعتها
الشديدة، وألقيتُ كلَّ ما وجدتهُ في حقيبتها على المنضدة..

- العب!

رمي لي ورقتين.. تناولتهما بأصابع مرتعشةٍ.. ٧ و٩..
المجموع ١٦.. أقترَب من الرقم الرابع ٢١..

كشف الثعبانُ إحدى ورقتيه.. ١٠.. لو كان يُخفي ٧
فهو رابحٌ.. ابتسم ابتسامة ظفر وعاد للوراء بظهره..
- كارت..

قلتها بحدّةٍ.. ناولني كارتًا ثم خلع عويناته ووضعاها
بجانبِ ورقه.. قال:

- البوكر مش بس لعب ورق..

كشفتُ طرفَ ورقتي الثالثة.. ٦.. المجموع ٢٢.. لقد
خسرتُ..

أكمل:

- البوكر لعب بعقل الي قدّامك..

ثم كشف ورقته الثانية ولمعت عيناه.. ٣.. لقد كنتُ
فائزاً من البداية لكنه خدعني.. ملتُ بجسدي ناحيته..
أوشكت أن ألكمه في وجهه.. منعتني ولاء:

- كفاية بقى يا مجدي!

- اسمع كلام الهانم.. يا مجدي!

قالها بتهكمٍ واضحٍ.. كانت هذه هي الكلمة الأخيرة
التي ينطقها قبل أن أطوح قبضتي في وجهه.. بعدها
مرّت أمامي المشاهد متقطعةً سريعةً.. ولاء تصرخُ.. تهشم
زجاجة فوق رأسي.. دماء دافئة وقبضتي تهشمُ أنف
الثعبان.. أذرع حديدية تُحيط بخصري.. إلقاءً في الشارع
وقد تمزقت ملابسني.. النهاية كنتُ أقودُ سيارتي برُفقة ولاء
والدماء تغرقُ رأسي:

- سوق على مهلك!

لم أكن أرى ما أمامي وأنا أخترقُ الطريقَ بسرعةٍ بالغةٍ
وقد أعماني الغضبُ وظلامُ الليل.

- متخافيش..

قلتها دون أن أنظرَ إليها.. فقط أنا أرى الطريقَ يتموِّج
مثل البحر، بينما رأسي يطفو فوق وسادةٍ مريحةٍ..

ألمحُ لافتةً مُضيئةً لمجمع مواقف الإسكندرية..

فجأةً.. ولاء تصرخُ. فجأةً.. طفلة صغيرة تعبرُ الطريق..

حاولتُ أن أتجنبها لكن عقلي وحواسي كانا أبطأ
وأكسل مما يُفترض.. أرى الطفلة ترفع يدها أمام وجهها
ذعرًا وخوفًا.. لم أسمع لها صراخًا.. كل شيء صار مُعتمًا
لوهلةً.. ربما توقّف الزمنُ أو توقّفت كلُّ حواسي.. عادت
الأحداثُ تتحرك بسرعة الصاروخ مع صرخةٍ أخرى من
ولاء.. الزجاج ينفجرُ في وجهي مثل قبلةٍ مدويةٍ وجسد
الطفلة يستقر فوق مقدمة السيارة.. دهستُ على
الفرامل حتى كادت قدمي تخترقُ الدّواسة.. توقفت
السيارة بغتةً.. كنتيجةٍ لرد الفعل، جسد الطفلة ينزلقُ
ثم يطيرُ في الهواء قبل أن يستقرَّ بجوار حافة التّرعة..
أطفأتُ مُحركَ السيارة وأنا ألهتُ.. هبّت الرياحُ بقسوةٍ
وعربدت بين شظايا الزجاج المكسور فأصدرت صفيراً
غريبًا.. هرعت مهشم الأعصاب ناحية الفتاة.. كانت تئنُّ
من الألم.. قبل أن أقترَب منها تحركت فانزلقت في التّرعة
وهوت كجلمودٍ حجري.. ألقىتُ نفسي خلفها بلا تفكيرٍ
وغصتُ مثل المجنون.. كانت المياه قد ابتلعت الفتاة
وطوتها سريعًا داخل أمواجها.. في الأسفل، كدت أن أختنقُ
وضاعت أنفاسي حتى ظننت أنني سأموت.. لكنني عثرتُ
على الفتاة وهي ترتكزُ في القاع.. حملتها إلى السطح.. بين

يديّ وخلف القمر الدموي كانت قد فارقت الحياة وعلى وجهها البريء حسرة الموت.. أغمضتُ عينيها الزرقاوين بيدي محاولاً أن أخفي نفسي منها.. رأيتُ حول عنقها سلسلةً تعليقها على هيئة ميزان.. ربما كان هذا هو ميزان العدالة.. لكن العدالة كانت قد غابت عن الأرض في تلك الساعة.. تركتها من يدي فعامت فوق سطح الماء حتى ظننت أنها ستطفو إلى الأبد.. لحظاتٍ وكانت تغوصُ بسلاسةٍ وراء انعكاس.. (ضوء القمر).

ضوء القمر..

كان حاضرًا حين وصلتُ أنا وحسن إلى الممرّ الذي يقودُ إلى التل الأحمر.. أخفيتُ السيارة وراء تبةٍ عاليةٍ فبدت مثل جثة حيوانٍ ميّتٍ.. شرعنا في صعودنا دون أن نتلكأ دقيقةً واحدةً.. حملت أكياس الدم والقُرن والعينين.. حسن كان مُتجهماً طوال الطريق.. ربما لأنه يعرفُ تحديداً ما ينتظرنا.. قلتُ:

- أنا عاوز أشكرك قبل كل حاجة..

- ده جميلك وأنا بحاول أردّه ليك.

دام صعودنا للتل نصف ساعة حتى وصلنا برهوت..
كانت منطقة أشد وحشة مما ظننتُ أو تخيلتُ.. عبارة
عن قبرٍ قديمٍ كادت تبتلعهُ الرمالُ فلم يبقُ منه غير جزءٍ
صغيرٍ.. بجواره أشجارٌ صَبَّارٌ ترتفعُ مثل الأشباح وتُوحى
بالموت..

تقدّم حسن من المقبرة وصار يدورُ من حولها وهو
يتفحصها باهتمامٍ.. لما انتهى، تناول جاروقًا وناولني آخر
ورُحنا نحفرُ حول المقبرة حتى ظهر بابها المصنوعُ من
الحجر الأسود المخلوط بالجبس، ثم شرعنا في تحطيمه
باستخدام المدقّات.. بعد أن انتهينا سألتُهُ:

- هنزل دلوقتي؟

أجاب وهو يلهثُ:

- لسه.. فيه طقوس لازم نعملها الأول..

ثم تناول كتاب شمس المعارف وتخيّر منه صفحةً
معينةً وراح يقرأ منها بصوتٍ مرتفعٍ:

- يا مذهب بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا
أبيض بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا أحمر
بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا برقان بحق
الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا شمهروش بحق

الملك الغالب أمره عليك، وأنت ميمون بحق الله
عليك الغالب أمره عليك.. أجيئوا.. أجيئوا!!

أجفَلْتُ في مكاني حين سمعتُ وقَّع حوافر وصليل
سلاسل حديدية يأتي من ورائي ويُمزق صمتَ الليل
المُوحش.. التفتُ بسرعةٍ فشاهدتُ بغلةً تبدو مضيئةً
بفعل الشر الذي راح يتطايرُ من عينيها، وقد حملتُ
سلاسل حديديةً حول رقبتها الطويلة..

كانت البغلةُ تنظرُ لي فيما يُشبه الفهمَ لِمَا نفعل..
راحت تدورُ من حولنا ببطءٍ وتُصدر أصواتًا مُخيفةً من
حنجرتها.. مدَّ حسن يده وأوقفني في مكاني وهو يقول:
- متبصّش ليها.. دي عروسة القبور.. لو خدتك هتطير
بيك وتدفنك وإنْت حي..

ولأول مرةٍ ألاحظُ أنني كنتُ أقربُ منها دون أن أشعر..
عدتُ للخلفِ عدة خطواتٍ، وأشحتُ وجهي عنها محاولاً
أن أمحوها من عقلي.. حين التفتُ إليها مرةً أخرى كانت
قد اختفتُ تمامًا دون حتى أن تترك أثراً لحوافرها على
الرمال..

ألبسني حسن قميصًا طويلًا مصنوعًا من الكتان
وقد كتب فوقه حروفًا وأرقامًا.. أخبرني أن القميص،

للحماية من أذى الجن، غزّلته غجربةً من بناتِ الريح
بيدها اليُسرى وقد دقّت فوقه عزيمةً بحروفٍ ناريةٍ.. في
الحقيقة لم أستوعب معظم ما قال.. فقط كل ما يعنيني
أنه سيحميني من الجن.. دقيقة واحدة.. لماذا تم غزلُ
القميص باليد اليسرى.. ابتسم حسن ولم يُجبني، ثم أشار
لي بأن أنزل إلى المقبرة.. لم أكن أظن يوماً أني سأنزلُ إلى
مقبرةٍ وأنا على قيد الحياة.. المفترضُ أن أنزلها وأنا ميّت..
ناولني مصباحاً صغيراً وطلب مني ألا ألتفت إلى أي
شيء يظهرُ لي ثم تمنى لي التوفيق.. تمنّيتُ أن يأكله شيطان
فابتسم ابتسامةً شاحبةً.

الفصلُ الثاني عشر

عبرتُ بابَ المقبرةِ ودخلتُ..

كان هناك صمتٌ مُطبَّقٌ ورهبةٌ مُوحِشَةٌ.. راح نورُ
الكشَّافِ يرتعشُ.. رأيتُ ظلالاً تتراقصُ من حولي.. التفتُّ
للوراء.. رأيتُ القمرَ يتعدُّ ويغيبُ.. بدا لي أن هناك ظلًّا
ضخمًا أغلقَ البوابة.. سيطرت عليَّ فكرةٌ مزعجةٌ أن حسن
أغلقَ عليَّ بابَ القبرِ ورحل.. ناديتُ:

- حسن!

تردَّدَ صدى ندائي عشراتِ المرَّاتِ.. حاولتُ أن أستبعدَ
الخيالاتِ والأوهامَ من عقلي.. حرَّكتُ مصباحي.. لمحتُ
صخرةً صامدةً في الركنِ الأيسر.. حين اقتربت منها انطفأ
المصباح.. انطبقت عليَّ الظلمةُ وابتلعني داخلها..

أحسستُ بصعوبةٍ في التنفس وكان الظلامُ يخنقني..
جاهدتُ هذا الإحساسَ.. سمعتُ ضحكةً خبيثةً.. شعرتُ
بشيءٍ يدفعني إلى السقوط.. ثَبَّتْ قدميَّ ثم ضربتُ
بقبضتي المصباح عدة مراتٍ حتى كدتُ أهشُّمه لولا أن
عاد للعمل من جديدٍ..

الصخرةُ أراها في الركن الأيمن.. هل قلتُ من قبل إنها
في الأيسر.. لا أتذكر.. لا بد أنني أخطأت.. هل ذكرتُ أيضاً
أن هناك امرأةً تجلسُ فوقها.. نعم هناك امرأةٌ وجهُها
مقلوبٌ تجلسُ صامتةً صمت الموت وتنظرُ لي..

أغمضتُ عينيَّ وفتحتهما.. لم تعد المرأةُ موجودةً..
انظفاً المصباحُ من جديدٍ، وقبل أن أحاول إعادته للعمل
سحبته قوةً خفيَّةً من يدي وطوّحت به بعيداً.. احتفظتُ
بمكانه في ذاكرتي، ثم خطوتُ إلى الأمام بحذرٍ.. مددتُ يدي
ورحمتُ أحركهما في كلِّ اتجاهٍ.. عيناى جاحظتان أبحثُ عن
لمحة ضوءٍ..

سرتُ عدة خطواتٍ.. تعثرتُ.. سقطتُ.. نهضتُ.. وأخيراً
شعرتُ بالمصباحِ أسفل قدمي.. أشعلته من جديدٍ.. بسرعةٍ
رسمتُ على الأرض دائرةً كبيرةً تتوسطها نجمةٌ خماسيةٌ
ثم حددتها بالدماء التي شربتها الأرض في ظمأ حقيقي..

كبتُ داخل زوايا النجمة أسماء ملوك الجان: (طيكل،
دمليخ، ميمون، لياشلس، طهيوج)، ثم وقفتُ وسط
الدائرة..

سكبتُ فوق وجهي ما تبقى من دماء، ثم وضعتُ
عيني الميته فوق عيني.. للحظةٍ ومض بريقٌ داخل مقلتي،
ثم سرق بصري وعميتُ.. تلفتُ حول نفسي محسورًا وقد
شج صدري بسيفٍ باردٍ من الذعر.. صرختُ وسط الظلام
المُوحش المُحيط بي:

- حسن...!!

بعدها سمعتُ ضحكةً عاليةً، ثم انكشفت الرؤيةُ
فجأةً أمامي فصرتُ مُبصرًا في مملكة الجن.

وجدتُ نفسي داخل ما يُشبه قاعة كهفٍ صخري
تصطبغُ بنورٍ أحمرٍ باهتٍ لا أعرفُ من أين يأتي مصدره..
على مقربةٍ مني شاهدتُ الجن يرتعُ في مجونٍ.. مخلوقاتُ
مُرعبةٌ تحملُ سمات عالم الأساطير واللا حقيقة.. لهم
أرجلٌ ماعز وأذرعٌ طويلةٌ كالعصيان تنتهي بثلاثة أصابع..
رأيتُ حفنةً منهم يحملون امرأةً عاريةً يُغطيها شعرٌ
كالحرير وتحملُ صدرًا كبيرًا مثل حبتي أناناس.. كانت

المرأة تبدو كالمسحورة تستجيبُ لهم كالعجينِ في يدِ خبَّازٍ
يُجيدُ الصَّنعة.. تتأوّه بين الحين والآخر وتُخرج شهقاتٍ
مكتومةً متلذذةً.. جسدها الشهيُّ كاد يختفي تحت رماح
أجسادهم حين راحوا جميعًا يُضاجعونها في كل فتحاتِ
جسدها قبل أن يسحبوها معهم تحت الأرضِ وسط صياحٍ
لا ينتهي.

رأيتُ حيةً عملاقةً تخرجُ من تحت الأرضِ.. تشكَّلت
سريعًا واستحالت إلى كائنٍ آخر من الأبالسة، سرعان ما
دخلتُ في شجارٍ مع جنٍّ يحملُ رأس كلبٍ.. كان السببُ
تميمةً أخرجتها الحيةُ من فم ميتٍ سلخَ رأسه وفُقئت
عيناه.

لو كان هناك بديلٌ للجحيم لكان هو هذا المكان..
أمعنتُ النظرَ حولي في كلِّ ما حوالي فلم أجد غير قبحٍ
وبشاعةٍ..

سرتُ مُتلمسًا النجاةَ والخروجَ.. سمعتُ صرخةً عاليةً
فيها تعاسةٌ لا تنتهي وتأتي من ممرٍّ طويلٍ مظلمٍ..

مشيتُ باتجاه الممرِّ.. على مدخل الممرِّ وُضعت بوابةٌ
من حديدٍ نُقش فوقها رسمٌ مُفزعٌ لرجالٍ ونساءٍ عراةٍ
أجسادهم ملتويةٌ يرفعون أيديهم لأعلى طلبًا للرحمةِ
بينما يحترقون في أتونٍ مُلتهبٍ.. كانت البوابةُ مُوصدةً..

مددتُ يدي محاولاً فتحَهَا.. اشتعلت فيها النارُ فجأةً
فكادت تلتهمني لولا أن تراجعتُ للوراء سريعاً..

سمعتُ صرخةً مُخيفةً اهتزَّت لها أرجاء العالم السفلي
وسمعتها كل الأموات.. ثوانٍ.. ثم فُتحت البوابةُ بفعل قوةٍ
خفيّةٍ ورأيتُ المخلوقَ الأبشع والأفطع، وحول عنقه كان
يلتفُّ شجاعٌ أقرع.. (ثعبان).

ثعبان..

اصطدمتُ به أمام الكاشير في محلِّ اللوجباتِ السريعةِ
بعدما كنت انتهيتُ من دفن والد حسن.. كان قد أطلق
لحيته وأطال شعر رأسه فبدا مثل أحد كُفار الجاهلية
كما تُصورهم الأفلام.. ابتسم في وجهي وكأنه عثر على
فريسةٍ:

- يا جمال الفرص السعيدة!

أجبتُه باقتضابٍ شديدٍ مُحاولاً إنهاء هذا الحديث
السَّمج، لكنه استوقفني من جديد:

- مرجعتش تلعب تاني ليه!

قلتُ بهدوءٍ وأنا أتناول من الكاشير فاتورة الحساب:

- مفيش.. بطلت..

قال بلهجة فظة:

- ولأ فلست؟

ثم سحب مني الفاتورة وألقى على محتواها نظرةً سريعةً، بعدها استطرد وهو يُخرج محافظته المتخمة:

- اسمح لي أدفعلك!

احمرّ وجهي حين ناول الكاشير النقودَ دون أن ينتظرَ ردّي.. أو شكّت أن أسبه وألعهه لكنني أمسكتُ أعصابي عند الحدِّ الأخير ورسمتُ على وجهي قناع (أن لا بأس).. طلب مني بعد ذلك أن آتي معه للعب.. أخبرني أن اللعبة ستقتصرُ على كليّنا.. لم أكن أرغب.. كنتُ قد عاهدتُ نفسي ألا أقربَ اللعب أو الشرب بعد الحادثة.. لكن رغبتني في الانتقام منه بسببِ إذلالي جعلتني أوافقُ على مضضٍ..

داخل منزله جلسنا حول مائدةِ اللعب.. كان الثعبانُ قد أعدَّ غرفةً تُشبه الموجودة في كازينوهات القمار..

سألته وأنا أحصي أوراقي:

- إنت بتشتغل إيه؟

أجاب إجابةً مُبهمةً مفادُها أنه يعمل كل وأي شيء..
سألني:

- الهانم اللي كانت معاك، مراتك؟

قلتُ بتلقائيةٍ:

- لا.. دي صاحبتني.

أدركتُ الآن زلة لساني.. أدركتُ كذلك مدى بشاعة
ابتسامته الصفراء التي رسمها الآن.. قال:

- بتحبها؟

- مش عارف..

- علاقتك بيها قديمة..؟

قلتُ:

- خيلنا في اللعب و..

قاطعني وهو يضحك ضحكةً ماكرةً:

- إيه رأيك نلعب عليها؟

لم أفهم لوهلةٍ ماذا يعني أو مَنْ يقصد:

- نلعب على مين؟

ابتسم وهو يعضُّ على شفتيه السفلى:

- على الهانم الي كانت معاك.. لو إنت كسبت حلال
عليك الفلوس.. لو أنا كسبت تتصل عليها تيجي تنام
معايا الليلة دي..

ثم توجّه إلى بارٍ صغيرٍ أحضر زجاجة خمرٍ وكأسين..
صبّ لي كأسًا ودفعتها باتجاهي وهو يبتسم:

- اشرب!

تجاهلتُ الكأس، بينما صبّ لنفسه كأسًا رفعها
بامتداد ذراعه في وجهي وقال:

- في صحتك!

راقبته وهو يجترعُ الخمرَ على مهلٍ.. قلتُ:

- أوعدك لو فلوسي خلصت هنلعب عليها.. ردّ وهو
يُفند الورق بحماسة:

- يبقى هتخلص!

ثم أكملنا اللعب.. بعد ساعةٍ كنتُ قد خسرت..
أقصدُ ربحت كل أمواله..

نظر نحوي وأنا أجمع النقود وأحشرها في جيوبي..
تجرّع كأسًا جديدةً وقد احمرَّ وجهه.. ابتسم نصف
ابتسامة، ثم قال:

- لعبتها صح المرة دي..

نهضتُ وأنا أرميه بنظرة استهزاء:

- تعيش وتاخذ غيرها..

ثم استطردتُ قبل أن أنهض:

- تحبّ تكمل!

أراح رأسه للوراء ثم أغمض عينيه وأشار لي بأن أعاذر..

لم أكد أسيرُ بضع خطوات حتى سمعتُ صوتًا مسعورًا يدوي في عقلي: (انظر خلفك).. التفّتُ وإذا بالرجلِ الثعبان كان يتسللُ من ورائي وهو يحملُ سكينًا.. ودون أن يُعطيني فرصةً للحركةِ انقضَّ يطعنني في مكان القلب.. رفعتُ يدي بتلقائيةٍ.. السكين جرحت يدي وانحرفت.. صرخ مثل المجدوب، بينما أمسكتُ ذراعه الممسكة بالسكين.. تطوّحنا معًا في قتال حياة أو موت.. اصطدمننا بمائدة اللعب فتهشمتُ بدويٌّ مزعجٍ وسقطنا على الأرض، ثم سكن كلُّ شيء بغتةً..

رأيتُ السكين داخل عنقه حتى مقبضها..

نظر لي محسورًا.. عيناه تتسعان.. فتح فمه.. حاول أن يصرخ.. لم يخرج من حنجرته غير حشجةٍ مكتومة.. طوّح بيده في الهواء باتجاهي.. تراجعتُ للوراء أتابعه في ذعري..

نهض من على الأرض مترنحًا دون أن يُحاول انتزاع السكين من عنقه.. مدَّ يده وأمسك زجاجة خمر ثم سار باتجاه كنبه كبيرةٍ وارتمى فوقها.. رفع الزجاجة على فمه ثم نهل حتى أنهى ربعها.. نظر لي من جديد.. رفع الزجاجة نحوِي وكأنه يدعوني لمشاركته الشراب.. صدر منه حوارٌ مخيفٌ ثم سقطت الزجاجة من يده ومات.

اقتربتُ منه بعد قليلٍ.. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين.. فكَّه العلوي ابتعد عن فكه السفلي فبدأ مبتسمًا ابتسامته الكريهة.. انقضت بعد ذلك ساعةً كاملةً أنظر إلى جثته ولا أعرفُ كيف أتصرفُ.. لم أعتقد يومًا أنني قد أفعل شيئًا بمثل تلك القذارة ..

انتزعتُ السكين من عنقه.. اضطررتُ أن أستخدم كلتا يديَّ في ذلك.. لم أكن أعلمُ أن طعنتي كانت بمثل تلك القوة..

حملته وتوجهتُ إلى المطبخ.. فتحت الدير فريزر وأخرجتُ كل ما به من أطعمةٍ محفوظةٍ.. حاولتُ وضع الجثة في الداخل لكنها كانت قد تخشبت.. لم تعد لينتةً بطريقةٍ تكفي لحشرها.. أحتاجُ إلى أن أقسمها إلى نصفين.. مجرد التفكير في ذلك جعل معدتي تتحركُ.. جرَّبتُ أن أكسر ساقه.. ظهره.. اللعنة.. اللعنة.

بحثتُ عن ساطورٍ حتى وجدته.. فردتُ الجثة على الأرض.. بدأتُ بقطع اللحم ثم نشر العظام.. فاحت رائحةٌ كريهةٌ حين ثقتُ الأمعاء الغليظة بالخطأ، حين انتهيت كنتُ أجلسُ بين شطريّ الجثة وحوالي بركةٍ من الدماء الحمراء..

حاولتُ أن أنهض فشعرتُ بألمٍ في ذراعيي.. تذكرتُ الآن أنني قد جُرحت.. دمائي تختلطُ بدماء الجثة التي لمحتُ فيها انعكاسًا مشوهًا لصورة وجهي الذي كاد يكون وجه.. (مسخ).

مسخ..

ذلك هو ما رأيته وراء بوابة الجن..

المخلوقُ المخيفُ الذي خرج من غضبِ الرب ويُشبهه التيس، وإن كان أكثر قبحًا وبشاعةً.. سوميا.. كان يجلسُ فوق عرشٍ عالٍ من الصخر الصُّلب الأحمر، وقد زينتُه جماجم ورؤوس بشرية تصرخُ.. على جانبي عرشه اصطفت مجموعةٌ من البشر في أيديهم مباخر نحاسية يتصاعد منها دخانٌ كثيفٌ، ويرددون أدعيةً غريبةً.. كانوا جميعًا عرايا امتلأت أجسادهم بوشومٍ شيطانيةٍ وبنديات صغيرة لا أعلم سببًا لها غير أنها قد تكون تقريبًا لهذا البشع..

خرجتُ من وسط الصف، امرأةً فاحشة الجسد، تضع
غطاءً شفافاً على وجهها بينما شعرها ينسدل خلف
ظهرها ويلامس أطراف مؤخرتها التي اهتزت في ليونةٍ
مطلقة.. مشت نحو سوميا بكبرياء شيطاني حتى أصبحت
بين ساقيه.. أحنت رأسها وقالت بخنوع:

- سيدي.. إلهي المبجل.. باركني!

ردّد الجميع خلفها في آنٍ واحدٍ وبصوتٍ جهوريّ:

- ليتبارك اسمك يا إلهنا!

ثم كشفت عن وجهها.. ضربني زلزلٌ وهوى قلبي
من فوق سفح جبلٍ شاهقٍ.. كانت هويدا.. المرأة التي
ضاجعتها في غرفةٍ مأمور السجن.. ثوانٍ ثم انحنت على
ركبتيها وقبّلت قدم سوميا.

رغمًا عني وصلت الأبخرة إلى أنفي.. تسللت إلى عقلي
ومنه تغلغلٌ داخل روحي.. مثل مسلوب الإرادة وجدتُ
نفسي أنضم إلى صفّ الواقفين في انتظار دوري من أجل
تقبيل البشع..

لم أعد أذكر ما الذي أتى بي إلى هنا.. أو حتى كيف
جئت.. أنا فقط شعرت بظماً وبنارٍ في فمي لا أقدر

على احتمالهما.. تلك اللحظة التي أعيشها تلغي كل ما قبلها.. أي روعة وأي جنة صرْتُ فيهما.. توَسَّلت للشاب الذي يقف أمامي أن أسبقه.. التفت لي بعينين خاليتين من التعبير.. التفتت من حولي امرأتان يسيلُ العرق بين فخذيهما وتطلبان مني أن أمتزجَ بجسديهما.. أزحتهما عني وتركتهما مع الشاب يُمارسون كل أنواع الخطيئة.. وصلتُ لسوميا..

نزلتُ على ركبتيَّ ودنوتُ مما بين ساقَيْهِ.. نكزني قرنُ الشيطان الذي أخفيه في جانبي.. استفقتُ من غيبوتي فجأةً وارتعدتُ فرائصي.. رفعتُ وجهي باتجاه سوميا الذي نفث سمومَه ناحيتي فأغشى عينيَّ للحظة، لكنني ميَّزت الآن أن لديه قرنًا وحيدًا.. قرنًا يُشبه الذي معي.. أيعقلُ أنني أحمل قرنه الثاني بين يديَّ.. رُبما.. رُبما لا.. ثم وبكلِّ قوتي طعنته بالقرن.

يتهاوى سوميا..

يهتزُّ لبرهةٍ.. يرتعشُ.. ثم يسقطُ فوق عرشه..

نظرتُ إلى يدي ورفعتُ القرن عاليًا غير مُصدِّق أنني نجحتُ..

صرختُ..

صرخ الجميع..

انقلبوا إلى مساحيطٍ بشعةٍ..

ومثل هجوم الزومبي انقضُّوا عليَّ.. أغمدت القرنَ
في أقربهم لي.. تفاديتُ انقضاة أحدهم.. ركلتُ ثالثًا..
دفعتُ رابعًا.. اخترقتُ الباقين مثل سكينٍ في قطعة لحم..
المكان يتهاوى ويهتزُّ كأنما ضربه زلزالٌ بقوة عشرة ريخترٍ..
الأرضُ تتشقق وتخرجُ منها نيرانٌ تطايرت مثل اليرقات..
حممٌ مُلتهبةٌ تزحفُ كالثعابين من بين شقوقِ الجدرانِ
الواسعة.. تجاوزتُ كل ذلك بكثيرٍ من الحظِّ والمجهود في
الركض والمناورة..

خرجتُ من القاعة ووصلت إلى بداية المدخل.. ملحتُ
من بعيدٍ نور القمر يتسللُ مُرتعشًا من خلال فتحةٍ تبدو
واسعةً.. لو استطعتُ أن أصلَ إليها فسوف أنجو..

استجمعتُ أنفاسي وجريتُ من جديدٍ.. لا تزال أصواتُ
الراكضين تُطارديني.. شعرتُ بأنيابٍ حادةٍ تقبضُ على كتفي
باستماتةٍ.. مخالبٌ مُمزق جسدي من الخلف.. رفرفة
أجنحة فوق رأسي ولفحة هواء ساخن في وجهي.. ثم
سقطتُ.

الفصل الأخير

فتحتُ عينيَّ لأجد شمس الصباح حاضرةً في وجهي
تزيل كل ما علق في جسدي وروحي من متاعب.. كان
حسن يجلسُ بجواري بينما أنا مُستلقٍ داخل السيارة..
أحسستُ أن ملامحه تبدّلت للحظةٍ.. حكي لي أنه هبط
المقبرة حين سمع صراخي وهناك عثر عليَّ فاقدًا الوعي،
ثم استطاع أن يُخرجني بعد أن قرأ بعض الطلاسم
والعزائم.

- نجحت!

قالها بعد أن قصصتُ عليه كل ما حدث.. تبقي الآن
أن نطمئنَ على طاهر.. لم ننتظر أكثر من ذلك وذهبنا له..

حين وصلنا وجدتُ طاهر وقد استعاد عافيته ويجلس
على مصطبةٍ حجريةٍ أمام البيت.. لم أصدق ما رأيتُ حتى
احتضنته وجاذبته الكثير والكثير من الحديث..

قضيتُ معه بقية اليوم ثم ودَّعته بعد أن أوصيته
برعايةٍ راجيةٍ التي بكت أثناء رحيلي.. في الحقيقةِ
أحسستُ بتأثيرٍ كبيرٍ حين تركتهما.

حسن انصرف إلى حال سبيله ولا أعلم هل سأراه بعد
ذلك أم لا.

عدتُ إلى حياتي الطبيعية..

انشغلتُ قليلاً في عملي قبل أن أقرر أنني أحتاجُ إلى
راحةٍ.. حجزتُ تذكرة سفر إلى اليونان..

عندما ركبتُ الطائرة تملَّكني إحساسٌ كبيرٌ براحة
الضمير والأمان.. أغلقت نصف عيني تاركاً رأسي يسترخي
فوق وسادة المقعد المخملي.. لم أعبأ كثيراً بنظراتِ الفتاة
الجالسة بحواري وهي تتفحصني من أعلى إلى أسفل،
مرسلةً لي شفراتٍ ورسائلَ بأنها مُستعدةٌ لتجاذب أطراف
الحديث.. تفحصتها بنظرةٍ خاطفةٍ بعد برهةٍ قليلةٍ..
صاروخ أرض جو من فئة عابرات القارات..

ساعة مرّت منذ إقلاع الطائرة.. شعرتُ بالضجر وبالملل.. التفت نحو الفتاة.. كانت مندمجةً إلى حدٍّ ما في تصفّح الفيسبوك.. سألتها عن الساعة فابتسمت.. أعلم أنها طريقةٌ قديمةٌ لبدء محادثةٍ لكنها نجحت معها وانشغلنا قليلاً في التحدّث عن آخر ألبومات الغناء، ثم انتقلنا بعد ذلك للحديث في السياسة وأخيراً انتهينا إلى الحديث عن حرب فيتنام، قبل أن تنزع حزام الأمان وتستأذن في الذهاب إلى دورة المياه..

مشيت الفتاة قليلاً في الممر الممتد بين المقاعد ثم حدثت ارتجاجةٌ عنيفةٌ في جسد الطائرة كادت تُسقطها لولا أن تشبثت بأحد المساند..

شحبت وجوه الركاب واختلطت صرخاتهم بصوتٍ سرينة الإنذار التي راحت تدوي قبل أن يأتينا صوتُ المُضيفةِ مُجلجلاً بأن يلزمَ جميعُ الركابِ أماكنهم.. لو كانت أخبرتنا أننا سنموثُ الآن لكانت أخف وطأ من صرختها المذعورة التي أطلققتها في نهاية تحذيرها..

ألمح الفتاةَ وهي تُحاول أن تعود إلى مقعدها بجواري مرةً أخرى.. خطواتٌ قليلةٌ فقط هي كل ما كانت تفصلها حين ارتججت الطائرةُ مرةً أخرى لكن أقوى من المرة الأولى بعشرٍ مراتٍ على الأقل.. صرخت الفتاةُ وهي تفقد

توازنها قبل أن يصطدم رأسها بحافة صندوق الحقائق..
فقدت الوعي في لحظةٍ دون أن تكمل الآهة التي أخرجتها
وسقطت في الممر..

جسدُ الطائرة يميلُ إلى الأمام فجأةً.. تطايرت الحقائقُ
والأجهزةُ المحمولة في الهواء ثم سقطت علينا أقنعةُ
التنفس الموجودة أعلى المقاعد..

الصراخُ والهلعُ يشتد من الجميع، والدعواتُ إلى الله
بأن يُنجينا يُطلقها أحدُ الملتحين..

رأيتُ جسد الفتاة يتدحرجُ ككرةٍ ضخمةٍ تاركةً وراءها
خيلاً من الدماء.. نزعتُ عني حزام الأمان واستعنتُ
بحواف المقاعد حتى وصلت إليها.. حملتها بصعوبةٍ
وعدتُ بها مترنحاً.. وضعتها على مقعدها وأحكمتُ ربط
حزامها حتى لا تسقط ثم وضعتُ قناع الأكسجين حول
وجهها وتركتها لمصيرها.

زجاجُ نوافذ الطائرة يتهشمُ في سلاسةٍ سقوط قطع
دومينو متراسة على خط واحدٍ.. ضغط الهواء كاد ينتزعي
من فوق المقعد.. لم أكن أتخيله بتلك القوة.. أيها الحمقى
توقفوا عن الصراخ والذعر.. لا أريد أن أموت وسط كل
هذا الغباء..

تنشطُ الطائرة إلى نصفين كـرغيف فينبو في قبضة طفلٍ صغيرٍ.. يُمكنني أن أرى النصف الآخر وهو يُودعنا مُشتعلًا
بمن فيه من ركاب..

ما تبقى من جسم الطائرة يهوي معي بسرعةٍ مهولةٍ
باتجاه التحطم والتمزق على الأرض..

لا أعلمُ إن كان من مات محترقًا أم من سيموت
متحطمًا هو الأفضل حظًا.. الفتاة التي بجواري تنفصلُ
عن مقعدها فتصير حرةً طليقةً في الهواء وفي قبضة
الموت.. لم أحاول إنقاذها.. من الأساس لا يمكن إنقاذها..
لن ينجو أحد.. حتى أنا.. لا شك في ذلك..

هل أصرخُ الآن.. الأفضل أن أحتفظ بصراخي حتى
اللحظة الأخيرة.. أعلم أنها ستكون بلا فائدةٍ، ولكن
الصرخة الأخيرة هي بمثابة طابع البريد فوق خطاب
الموت..

أعتقد أنني نسيْتُ شيئًا.. لا يوجد وقتٌ لأتذكره.. لكن
ما هو.. الأرض تقتربُ بسرعةٍ رهيبَةٍ.. عزرائيل في انتظاري..
أنا خائفٌ.. فليتنظرُ قليلًا.. لم العجلة.. ألا يعلم أن العجلة
من الشيطان!!.. انحنيتُ إلى الأمام ووضعتُ رأسي بين يديَّ
لأحميه..

شيء ما يرتطمُ بجانب وجهي، فيرنُ صداه داخل أذني
ويختلطُ بجزءٍ من جمجمتي التي كادت تتهشم..

مشاهدٌ مُتقطعةٌ بالأبيض والأسود لما مررتُ به في الأيام
السابقة.. هناك مشهدٌ أغفلتُ عن رؤيته.. كيف فاتني..
وأين كنتُ.. أعتقد أن لحظة الصرخة الأخيرة قد حانت..
ها أنا ذا أطلقها ممتزجةً بآخر أنفاسي، ثم أغمضتُ عينيَّ.

خاتمة

فتحتُ عينيَّ..

القبرُ ليس مُظلمًا مثلما أخبروني..

شعرتُ بدوارٍ عجيبٍ وصداعٍ رهيبٍ يُمزِّقان رُوحِي
وعقلي..

تلفتُ من حولي.. كنتُ مُستلقيًا على بطني فوق
بلاط أرضٍ صلبةٍ غزلت عليها خيوطُ بيت العناكب..
حاولتُ النهوض.. الأرضُ تجذبني إليها كمغناطيس يحولُ
دون وقوفي.. تركتُ جسدي وتحسَّستُ الأرضَ الباردة.. كانت
عاجية اللون اقتربت من الصفار بفعل الزمن.. هناك لمبة
صفراء تقفُ فوق سلك كهرباءٍ مُتحديَّةٍ عامل الجاذبية..

أدرتُ وجهي إلى الأعلى، نحو السقف.. كرسي خشبي..
سرير عليه جثة ملفوفة في الكفن.. منضدة صغيرة عليها
بضعة أطباق طعام نصف فارغة.. لوحة كبيرة ثم أدركت
أنها سجادة.. كل هذا رأيته مُعلقًا على السقف.. أي هراء
هذا..

دقَّ قلبي بعنفٍ فضربتِ الدماء في نفوخ رأسي وكادت
تخرج من مُقلتي عيني..
الحين، والحين فقط أدركتُ الأمر.. أنا مُلتصق في
سقفِ غرفةٍ ما.

فتحتُ عيني..

وجدتُ نفسي مستلقيًا على السرير وقد قُيدت فوقه
بسيورٍ جلديةٍ صلبةٍ كالحديد..

حاولتُ أن أحرِّك نفسي لكن تحريك هرم كان أسهل..
في هلعٍ ساءلت نفسي ما الذي يحدثُ لي وكيف انتهى بي
الحال هكذا.. لقد كان كل شيء جيدًا حتى دقائق قليلة أو
على الأقل كنتُ أموتُ في حادث تحطم طائرة كما يليقُ
برجلٍ محترم..

تطلعتُ إلى السقف.. أرى آثار جسمي مرسومةً فوقه..
سمعتُ أصواتًا خافتةً.. لم أعرف في البداية ما هي.. ظهر
أولها.. جردُ أسود ذو أنفٍ طويلٍ قذرٍ.. لمعت عيناه
وقد أدرك تمامًا عجزني عن الحركة.. توقَّف فوق صدري
مباشرةً.. تبعه جردُ ثانٍ.. ثم ثالثٍ.. رابعٍ.. خامسٍ..
توقفتُ عن العدِّ.. قبيلة جردان تعددت أحجامها غطتني
تمامًا تخذشني بأظفارها الحادة الخشنة.. اقشعرَّ جسدي..
انقبضَ قلبي.. صرختُ.. وكأنني أطلقت إشارة البدء..
انقضُّوا عليَّ يأكلونني بلا رحمة!

فتحتُ عينيَّ..

رأيتُ أمامي ظلًّا أسود ضخمًا راح يتخذُ شكلًا آدميًا
وإن كان شديدَ النحافة على نحوٍ غير طبيعيٍّ..
اقترب الظلُّ من جدار الحجرة الذي تموج على نحوٍ
عجيبٍ ثم دخل فيه واختفى..

هزرتُ رأسي وكدت أن أهشمه بقبضتي محاولًا إخراج
تلك الأوهام منه.. وجدتُ نفسي داخل حجرة نصف
مُعتمةٍ ومُلقى على الأرض التي كانت باردةً مثل لوحٍ من
الثلج..

نهضتُ بصعوبةٍ شاعراً بكلِّ عظمةٍ في جسدي تئنُّ من
الأمِّ واتجهتُ نحو البابِ المغلقِ.. سرتُ بخطواتٍ ضعيفةٍ
مترنحةٍ.. أرسلتُ بصري من خلال ثقبِ المفتاح.. شاهدتُ
نتيجةً ورقيةً تاريخها يأتي بعد عامٍ مما هو مفروضٌ..
قبل أن أفكر من جديدٍ رأيتُ راجيةً تمرُّ في ثيابٍ سوداءٍ
ووجهٍ خالٍ من الدماء، فبدت مثل الأموات.. ناديتُ
عليها برجاءٍ وتوسُّلٍ.. التفتتُ نحوي بأسى:

- يا خسارتك يا مجدي.. حصل ليك نفس الي حصل
للمرحوم طاهر.

ماذا؟!.. ماذا تقولُ هذه المجنونة.. لقد حرَّرت طاهر
وقضيتُ على ملك الجن..

أصابني تيارٌ كهربائي حين أعدتُ التفكير.. الحجره
تدورُ من حولي مثل طاحونةٍ هولنديةٍ.. ارتفعت درجةُ
جسمي فجأةً.. اكتشفتُ أنني أمسك في يدي علبة
الفايوم.. رفعتها أمامي وأنا مصدومٌ.. أعودُ بشريط حياتي
للوراء، إلى حين كنتُ أقفُ على حافة النافذة وحيث
هويتُ.. أيعقل أن كل ما جرى مجرد كابوس لم أستيقظ
منه بعدُ أم أنني صرتُ سجين برهوت. أرى أمامي وجوهاً
تخبو ثم تبين..

